موجة جديدة
من الإبداع القصصي

تقديم

منحت لجنة تحكيم مسابقة الكاتب الشاب للعام 2001 ، التي تنظمها مؤسسة عبد المحسن القطّان ضمن برنامجها للثقافة والعلوم، جائزة القصة القصيرة مناصفة لكلٍّ من ماجد عاطف عن مجموعته «الطفو»، ومنير زعرور عن مجموعته «عطش الأولياء» ، وتنشر (أقواس) نماذج لكلٍ منهما في إطار الإضاءة على مشهد الكتابة الجديدة في مختلف الفنون الإبداعية .

كما ونقدم (5) قصص . . هي الفائزة في جائزة «جماعة الكروان» الأدبية في غزة، وهي لكلّ من : هداية شمعون، محمد الديراوي، سهيل أبو زهير، ختام محمد شويدح، وأحلام محمد بشارات . وكانت الجماعة أعلنت العام 1998 عن المسابقة التي تقدم لها أكثر من سبعين متسابقاً ومتسابقة من كافة ربوع فلسطين .

قامت الجماعة بإجراء فرز أولي لها قبل عرضها على مجموعة من المختصين لإقرار خمس قصص فائزة، غير أنّها ارتأت أن تقوم بنشر مجموعةٍ من القصص التي تنظر إليها بوصفها مساهمات جادّة وواعدة في مجال القصة القصيرة تشجيعاً من «جماعة الكروان» لكتابها وإقراراً بتميزها . وعلمت (أقواس) أن اتحاد الكتاب الفلسطينيين سيقوم بطباعة الأعمال الفائزة مع مجموعة أخرى من القصص التي شاركت ولم تحظَ بالفوز إلا أنها تتميز بمستوى رفيع .

(المحرر)

الصفقة

ماجد عاطف*

ارتحت كثيراً لما أطلّ مقعده المتحرك من ناصية الشارع، بعد أن تأخر وساورتني الظنون:
- هل أحضرته معك؟
- لم أر صاحبي بعد.. قلت لك من المرة السابقة إن مشاغله كثيرة.. ماذا عنك؟
قاعدتي وضعتها من المرة السابقة: ألا أسلم، تحسباً، قبل أن أستلم وأختبر..
- لم يكتمل المبلغ، وأرى أن تنتظر يوماً أو اثنين..
- هات ما معك الآن، وتحضر البقية حين تستلم..
- لا تستعجل، ستستلم المبلغ كاملاً وستوقع على إيصال..
- أي إيصال؟ هذا لم نتفق عليه..
راقني الأمر. أريد أن يعتقد أن آخرين في الموضوع، ليحسّ بالجدية ويجنبني تلاعباته..
- لا تخش شيئاً.. سنكتب فيه أنني رددت مالك الذي استودعته عندي طوال عام. أنت تعلم أنه ليس مالي الخاص، وأنني، فقط، رسول ومسؤول عنه..
- مثلي تماماً، فأنا رسول أيضاً، لا ناقة لي في الأمر سوى الخدمة..
هو يعلم، وأنا أعلم، أن الأمر برمته عبارة عن هراء نغطي به صفقتنا.. سأستلم القطعة من ناحيتي، ويستلم المبلغ من ناحيته.. لكني لن أسلم قبل أن أستلم وأجرب..
- إلى الأسبوع القادم إذاً، واختر هذه المرة مكاناً لا يجذب الصوت المرتفع فيه انتباه أحد..
- أي صوت؟
- صوت الرصاصة طبعاً، فلا بد من تجربته أولاً..
- لا أعتقد أن صاحبي سيوافق.
- أخبره، وسأنتظرك الأسبوع القادم..
مع أن عشرات الشكوك راودتني، وأنني لا أثق بنزاهته الشخصية وإن كنت أثق به أمنياً، لم أستطع حسم الموضوع.

كان احتمال القطعة يأكل من ذهني قطعاً ويشكل إغراءً خلب لبي، ودفعني إلى اقتراض أجرة ثلاثة شهور، تحسم خلال نصف سنة، من رب العمل . .

- إلى اللّقاء إذن .

ثمّة شعور مظلم تجاهه يفرض نفسه عليّ منذ أن أضاف، بعد المفاصلة الطويلة العريضة والدقيقة على الثمن الذي لم أستطع تخفيضه، عن استعداده للمساهمة . . لقد أصرّ منذ البداية على أن صفته وسيط ليس أكثر، الأمر الذي لم يعنني بتاتاً، لكنه يتناقض مع «استعداده للمساهمة» . . كان يعلم مسبقاً، لطبيعة إصابته التي أقعدته على كرسي متحرك، أن مساهمته لن تكون مباشرة وحيوية . . ومن جهة ثانية، كنت أشعر بتبدلاته إلى درجة أنني كدت أنكره لولا بقية من ذكريات ما قبل الإصابة . . صحيح أنه كان قروياً وعلى جانب من السذاجة، لكنه كان مخلصاً ومتحمساً ومقرباً إلى القلب، أيضاً . .

لم يتحرك من مكانه أو يرد على وداعي . كان يضغط على ركبتيه الميتتين بعصبية . فيمَ يفكر؟ إنه مستاء من أمر ما، لكنني لم أعد أكترث بشخصه، أو بمشاعره، أعترف . . ذلك الحبل المتين انقطع . بقيت أنظر له باحترام، ومعنيٌ بالصلة الداخلية التي جمعتنا للمرة الأولى في الشارع، والتي جعلتنا بعد أشهر نودع بعضنا قبيل التظاهرة مباشرة لشعورنا المشترك بأن شيئاً سيحدث لأحدنا أو لكلينا . . بالفعل، بعد أقل من خمس دقائق، كانت طلقة قد اخترقت عموده الفقري . . ما الذي حدث بعدها ليتغير على النحو الذي تغير إليه؟ بل ما الذي تغير لنتغير جميعنا؟

أياً كان المتغير، فقد كان أكثرنا تغيراً وخسارة . . كنا في ذلك الوقت مراهقين نندفع أكثر مما نفكر، وعندما وقفنا لنفكر كانت الأحداث تمضي باتجاه التسوية، فانسكبنا في همومنا الذاتية . لم يكن الانسكاب خياراً، بقدر ما كان شرنقة لتجميع الذات والمفاهيم . . وحده هو بقي في مكانه، يحمّل الآخرين، خاصة أنا، مسؤولية إصابته وما آل إليه بعد ذلك من عزلة طوال فترة العلاج الطبيعي الطويل وانتقاله إلى بيت ساحور . .

في التظاهرة التي أصيب فيها، كان الاقتحام قد أتى من ثلاث جهات في آن، أما الجهة الرابعة فقدُ تُركت منفذاً، يحيط به كمين، كدت أقع فيه، لولا أن حالفني الحظ في درج مكشوف يعلو إلى سطح بناية، فانبطحت على عتبته الثالثة، ومرت الدورية الراجلة من تحتي . . صحيح أننا، أنا على وجه التحديد، تركته مصاباً عند المتراس المتقدم، لكني لم أعلم بإصابته من الأصل، ثم أنه، على افتراض أنني علمت، كان أقرب إلى الدوريات المقتحمة منه إلينا، فما الذي كنت أستطيعه . . ثم أنه كان من المحتمل جداً أن أكون مكانه . . ثم أنه، مهما كان التقصير، لا يقدم لي أنا شيئاً، بل كنا جميعاً نقدم، بعاطفية وربما بغموض، للوطن المبهم آنذاك، الذي توضح فيما بعد وتغير . .

بالنسبة لي، كان قد سبقني ودفع ضريبة، سيأتي دوري لأدفعها، ولا أحد يعلم ما ستكون، فليس لديه ما يأخذه عليّ .

- أنت قلق . . صارحني : ما الأمر؟

بحركة بطيئة يدفع كرسيه إلى حافة الرصيف، ثم يلولبه بطريقة ما، فإذا به فوقها . قال :

- أظنّ أن علينا أن نلغي المشروع . .

شككت من المرة السابقة في عدة احتمالات : رغبته في أن يكون مفصلياً كصديق مشترك لنا حافظ على موقفه وموقعه، منذ سنوات رغم إصابة بترت يده من المرفق،

وشظية ضخمة استقرت في حوضه . . الفارق بينهما، رغم أن الاثنين أصيبا مراهقين، أن الصديق لم يفكّر أبداً أنه «خسر» شيئاً، رغم سنتين من الإهمال الموضوعي بفعل اعتقالات جماعية متلاحقة، لم يعتن خلالهما به سوى ذويه . ثم هناك الشخصية، فوعيه الفكري يسبق كثيراً وعيه الانفعالي / الاجتماعي ويوجهه . . الاحتمال الثاني : وجود قطعة فعليه لديه، فقد عاش فترة طويلة بين مصابين مطاردين كانوا جزءاً من مجموعات، ومن المنطقي بالتالي أن يحتفظوا بسلاحهم الشخصي لأغراض الدفاع، خاصة إذا كانوا ضالعين في تصفيات يتوقع أن يتم الانتقام لها، لكن لماذا ستصله حينئذ؟ لنفرض أن السلاح، بعد مرحلة معينة من التضحية، يصبح شيئاً عادياً يهدى بين «المعتادين» . . فلماذا يريد بيعه؟ الحاجة إلى المال؟ يأخذ مخصصين واحداً من «التنظيم» والآخر من جمعية محليّة، عدا الأهل وما يأتيه بطرق اجتماعية، أو شخصية . . الاحتمال الثالث : أن يكون حقاً، كما قال، وسيطاً ليس أكثر، عندئذ ستنتهي مهمته بالتسلم والتسليم، ولن يكون له شأن في مصير السلاح، ما دام طلب ثمناً لشيء يعلم أنه لن يكون مشروعاً تجارياً يحقق ربحاً مالياً على الإطلاق، لكن لماذا أبدى استعداده للمساهمة إلى درجة الاشتراط؟ أيريد أن يحقق طموحاً معيناً، وهو يعلم أن مؤهلاته وظروفه لا تساعدانه؟ ! الرابع : أن يكون الأمر شكلياً، الغاية منه الاستيلاء على المال، ليأتي بعدئذ بحجة أنه «اضطر للتخلص منه»، أو «تعرض صاحبه للاعتقال» . .

– لماذا؟ ما الذي لا ترتاح إليه؟

– لا أدري . . يوجد شيء لا أرتاح إليه، دعني أفكر وأقرر . .

طالما سيفكّر ويقرّر، وهذا يعني أنه يستطيع أن يقرّر فهو إذاً أكثر من وسيط، وكونه وسيطاً مجرد قناع ليحمي نفسه إذا حدث ما حدث، وهذا من حقّه . . يعلم ما الذي يقلقه ولا يرتاح إليه : التعامل . منذ أن تفاوضا على الثمن غيّر من نظرته له . صحيح أنه لم يحاول أن يوصل له موقفه الجديد، لكنه أحسّ به من تلقاء نفسه . حساسيته تجاه تصورات الآخرين عنه، وتقديرهم له، مرتفعة يتلمسها بين الحركات والتعبيرات بحدس . .

– أظنك منزعج من فكرة المبلغ . . في الحقيقية . .

عليه تجنب الحرج لتتم الصفقة، فيقاطعه :

– لماذا أنزعج؟ لن أدفع شيئاً من جيبي . . أنا مطالب فقط بحسن التصرف . أنت تعلم شحّ الموارد، لهذا يجب تصريفها بدقة . .

الإيحاء بوجود آخرين، مجموعة أو تنظيم، فكرة عبقرية، ستجعله يحسب ألف حساب للخداع أو التلاعب، وقد يحصل على القطعة مجاناً، لأن الهدف ليس شخصياً، وبالتالي لا معنى للدفع إلا إذا طرح نفسه بصفة تاجر أو وسيط . . وليدفع بالإيحاء إلى نهايته قال :

– أما إذا كنت منزعجاً مني، ولا أتعامل مع الموضوع بشكل شخصي، فأستطيع نقل انزعاجك، وأرجح بنسبة ثمانين في المائة أن يتصل بك أحدهم . .

«أحدهم» أكثر عبقرية . . عندما كان يحدثه عن بيت ساحور وعن المجموعات المزعومة، كان يوحي له بالتكتم واصطناع الأهمية والتبسم، بأهميته الخطيرة، أما الآن فسيشعر بـ «الخطورة الحقيقية» فقط، وعلى الأرجح أن يتراجع إلى حجمه الطبيعي . .

– لا، لن أتعامل مع غيرك ولن أقبل بالاتصال به في حالة اتصل بي . . هذه هي المشكلة، لم تقل لي إن إطاراً ما له صلة بالموضوع . .

– وما الذي يهمك طالما أن صلتك بي مباشرة؟ ثم إلى

الآن لا توجد صلة لإطار، بعد. تستطيع أن تكون مرتاحاً. .

تخلّص إلى الآن من احتمالين. . تردّده واضح في إشعال سيجارته. . أيعقل أن يكون الأمر مجرد خديعة ليحصل على المال؟ ما الذي حدث معه ليصل إلى هذه المرحلة؟

في الفترة التي أعقبت عودته من بيت ساحور، كان يزوره بانتظام، وليظل يضعه في الأجواء، كان يثرثر له بما لا يجوز الثرثرة فيه، ظاناً أن ذلك سيساعده على التأقلم. . لكن النتيجة كانت تأتي معاكسة، فظل أهله يشكون أن عصبيته تتضاعف بُعيد زيارته له وأنه يحطم الأشياء ويصرخ بهستيريا، فكفّ عن الثرثرة وصار ينتقي موضوعات مأساوية، معظمها تحط من صورته الخارجية أمامه، فكانت معنوياته تتحسن، وكثيراً ما قال له:

– عندما أراك، وأرى خوازيقك، أفقد الشعور بخوازيقي. .

ولما ردّدها له مرات كثيرة، بكثير من الزهو، قرر أن يسحب من تحته البساط. .

– بصراحة، كنت أخترعها لك، لأنك كنت تتحسن، لكن ألا ترى أن هذا غريب؟

أراد دفعه إلى مواجهة ذاته، فقد سئم من الواجب الذي يتحول إلى حق له، وسئم من صفة اكتشفها في معظم المصابين إصابات صعبة أو المعوقين، حين يفترضون أن على الآخرين أن يساعدوهم، مرتكزين على إحساسهم بالتأنيب أو الشفقة، ليتحولوا بعد ذلك إلى أخطبوط انتهازي لا يتورع عن شيء. . ليكن مصاباً، ليكن الفدائي الأول، ليكن ما يكون، لكنه لن يراعيه بعد الآن، إلا عندما يقدر ذلك ضروريا، ودون أن يكون على وعي به. .

– ذلك ذكاء ولؤم منك. .

– أنت من فرضهما يا صديقي. .

– ها؟ لم تقل ماذا قررت؟

– سأصارحك. . المسدس قديم، ولا توجد طلقات له. .

صحيح أن ملامحه ارتخت، لكن قلقاً صغيراً آخر تمحور حول العينين.

هكذا الأمر إذاً؟ أين عثرت عليه، أو غيرك؟ في الحاكورة مدفوناً منذ الستينيات أو الأربعينيات وتسميه مسدساً؟ وتريد فوق ذلك أن تبيعه لي أو تخدعني به؟؟

إذا كنت أنظر لك بنظرة ما، فيها ما قد يسيء، فنظرتك لي كلها إساءة. .

– طيّب؟

– قلت لك. .

– اجلبه لأفحصه، إذا كان يمكن استصلاحه فسأدفع لك، لكن ليس كما تتوقع. .

سيدفع له، لا لأنه يستحق، بل لأنه يريد أن يدفع له. . قلقه الصغير يكبر، ثم فجأة، كأنه وجد منفذاً، يقول بسرعة:

– حسناً، سأخبر صاحبي. .

– إلى اللقاء، هنا، في الموعد نفسه، الأسبوع القادم. .

كان متأكداً أنه، بعد ما حدث، لن يريه وجهه. .

* قاص فلسطيني يقيم في رام الله.

عطش الأولياء

منير زعرور*

طه..

فتح عينيه على خطين فسفوريين ينبعث منهما ضوء خفيف بالكاد يكفي لرؤيتهما . لا شيء يُرى في الغرفة سوى الخطين الفسفوريين اللذين يشيران إلى الخامسة ، أيّة خامسة؟ ! لم يهتم كثيراً، أسبل جفنيه ونام .

تجمع الناس في الساحة والتفّوا حول الراعي المكلف رعي الناقة ، كانت الناقة تسير إلى جواره دون مقود ، بيضاء مثل قنديل في الظلام ، تتهادى بامتلاء من أتمت سنتها العاشرة . قال لهم الكاهن يوم ولدت أعطوها لأجمل الرعاة ، يرحل بها ويعود بعد عشر سنين ، لم يذق ضرعها ولد ، ولم يشمها ذكر . فتح الناس الدائرة من حولها فدارت نحو المذبح ، وبركت عليه ، مدت رقبتها على حجر الدم فسجد الناس ، كانوا ينتظرونها منذ عشر سنين . خرج الكاهن بسيف الغفران وطاسة الأسماء ، ذبحها وهي تبتسم ، ونثر دمها على التائهين . لم يكن دمها قد جف عندما غاض المعبد في الصخر ، وأفلتت من مرابطها شموس أحرقت المدينة ، ما كان لناقة بهذا النقاء أعطيت للرب أن تغضبه ، إلا أن يكون قد كره الساعة الخامسة ! ! .

فتح طه عينيه على إطار الساعة المعلقة أمامه ، لا يزال نائماً على ظهره ، داخل الإطار يشير العقربان إلى الساعة الخامسةّ! تساءل بصوت مرتفع : «أيّة خامسة؟» ، ومد أصابعه ليلتقط سيجارة وضعها قبل أن ينام فوق علبة السجائر ، لكنها أفلتت بسبب رخاوة في أصابعه وسقطت على الأرض ، مد رأسه باحثاً عنها فلم ير شيئاً ، جال ببصره في ظلام الغرفة ، لم يتعرف إلا على خطين فسفوريين ينبعث منهما ضوء خفيف بالكاد يكفي لرؤيتهما ، تحسس علبة السجائر ، سحب واحدة «وكمش» علبة الثقاب ، اختلطت في فمه رائحة الكبريت والتبغ والجفاف اللزج بطعم كسول يشبه طعم النوم ، وللمرة الرابعة رأى العقارب تشير إلى الخامسة ، سحب نفساً آخر ، وفكر بأن ما يجري معه ليس سوى وهم ، ورطة في فراغ خال من الزمن ، حيث فقدت عقارب الساعة المدى الصلب الذي تتحرك فيه ، أغمض عينيه وهو مستلق على ظهره ، مقتنع بأنها ستنتظر تصلباً آخر للمدى ، أيوجد خيار آخر ؟ أمامه مقابلة عمل عند الثامنة ! هل ستصلها العقارب؟

رانية..

مرّت ثلاث سنوات منذ بدأت رانية العمل، إذا أضفناها لعمرها الآخر، سنجدها وقتاً كافياً يدفعنا لتصديقها عندما قالت لزميلها في الوظيفة، أو لصديقتها سحر، لم تعد تذكر: «بناء على ما عشته حتى الآن، أستطيع القول إن حياتي دلو أملأُه أياماً، لا تفرق عن بعضها إلا بالاسم وبعض التفاصيل التي يمكن الاستغناء عنها، وامتلاء الدلو يعني أني سأموت»، وأضافت في اليوم التالي: «إنه مصير كئيب أن لا نستطيع إحداث ثقب فينا تسيل منه الأيام».

رأيت القلق واضحاً على صباح أمي عندما جلبت فنجان «النسكفيه»، وأمي هي التي تعد شهوري، ليست الشمسية أو القمرية، وإنما شهري الخاص بي!، عندما تقترب نهايته تبدأ عيناها البحث عن علامات الدورة الشهرية، اصفراراً في الوجه، تقطيبة ألم، كلمات نزقة، تكور يشبه الرغبة في الاختباء. بدأت أمي هذا البحث منذ المرة الأولى التي علمتني فيها كيف أعد أيام شهري، وكيف يجب أن أحافظ على تعاقب الشهور أكثر من حياتي. على ما يبدو أنها لمست كسلاً مني في التعلم، فأخذت على عاتقها هذا الواجب. أمي قلقة إذ تأخر نزيف القمر.

في الشارع الرئيس، كانت رانية تحاول فهم سبب اندفاعها التلقائي من الرصيف إلى منتصف الشارع قبل أن تصل إلى «المنارة»، ليست الوحيدة، وإنما هذا ما يقوم به الجميع، انحدار من الأرصفة التي تحيط بـ «المنارة» إلى منتصف الشارع، انجذاب نحو «المنارة» وارتداد عنها إلى مختلف الاتجاهات! هل هي «المنارة»؟ أم الناس؟ أم الأرصفة المسوّرة بقضبان معدنية لتمنع الناس من هذا التصرف بالذات؟ تمتمت رانية وهي تقفز أمام سيارة قام سائقها بوقوف سلس كأنه في لعبة «أتاري» يحفظ مفاجآتها: «إنّه رهاب الاحتجاز. هذه تفصيلة أخرى في دلو حياتي».

يحاول رجال الشرطة بين الحين والآخر تنظيم عملية السير، فيطاردون الناس لحشرهم داخل الأرصفة، وتنتفخ أوداجهم وهم ينفخون بالصفارات محاولين أن يعلو صوتها على أبواق السيارات، لكن إغراء العلاج الذي تقدمه «المنارة» أقوى من صفاراتهم، فيواصل الناس اندفاعهم.

كانت قد بدأت قفزتها قبل الأخيرة عندما أحست بلسعة في أسفل مؤخرتها، فصرخت وهي تطير في الهواء أمام السيارة الواقفة: «آخ، يا ابن الكلب». «سأعود وألحق بالسافل الذي قرصني». عندما استدارت رانية، لم يكن بإمكانها التعرّف عليه. «أبناء العاهرات، يتقافزون مثل القرود»، مدت يدها إلى الحوض الصغير داخل «المنارة» وقطفت زهرة أقحوان مهجّنة، شمتها، رأت الشرطي عند خط المشاة في الجانب الآخر من «المنارة»، يصفر ويشير لها بيديه كي تتوقف، شمت الوردة مرة أخرى ورمتها تجاه الشرطي باستهزاء، كأنها وجدت مَنْ تفرّغ غضبها فيه، وقعت الوردة على مقدمة سيارة يقودها رجل معه طفلتان بزي مدرسي، ابتسمت رانية لهذه الصدفة، تفاءلت بيومها، وبدت أكثر طولاً وهي تقفز بين السيارات نحو الجانب الآخر من «المنارة» في شارع «مسمكة فلسطين».

سحر، رائد..

كانا عند أسفل «شارع البريد» شديد الانحدار، قرب نهايته التي تصب «بشارع السهل»، مشت سحر بخط منحرف نحو أقصى يسار الشارع لتكشف ما بعد

المنعطف، ومن هناك قالت لرائد الذي توقف ينتظرها:
- ألم أقل لك أنه سيكون مغلقاً، ما زالت الساعة الثامنة والنصف، لن يفتح قبل الحادية عشرة، أخبرني، كيف تشرب «مشروباً لاذعاً» في هذا الوقت المبكر؟!
- نستطيع أن نجلس على السور، ما رأيك؟ المكان هنا هادئ، لا أحد يرغب بصعود هذه الكارثة.
- ماشي، سأفلت من دفع ثمن دعوتك، ها... بماذا تريد أن تستشيرني؟
- لحظات، سأذهب إلى الدكان لشراء شيء نشربه، ماذا تريدين؟
- عصير برتقال.
وقف رائد على السور الصغير، وسار على حافته عدة خطوات، ثم قفز نحو نصب رخامي منخفض مقام وسط الرصيف لتخليد اسم شهيد سقط في المكان، ومنه قفز إلى وسط الشارع، وجرى نحو الدكان. فتحت رانية حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة، ثبتت خصلة شعر خلف أذنها، ومسحت جبينها وحاجبها بكفها اليمنى.
أخرج رائد زجاجة عصير برتقال من الكيس الأسود، فتحها وأدخل فيها القصبة وقدمها إلى سحر، ثم تناول عبوة بفتحة واسعة، فيها سائل أحمر ثخين، فقالت سحر بدهشة:
- عصير بندورة! كيف تشرب هذه الحموضة صباحاً؟
- إنه شراب صحي، وتقترن نكهته بذلك المشروب... أتعرفين، للاقترانات دور مهم في تفكيري، قبل قليل، عندما قفزت من السور إلى حجر الرخام تذكرت صباحاً قديماً ذهبت فيه إلى عمل تطوعي، إلى قرية اسمها «عَجَّة».
- «عجَّة»، أشم رائحة بصل أخضر ونعنع وبقدونس، مفروكَة بالملح والفلفل الأسود.
- «عَجَّة»، إنها القرية ذات العرّافة الشهيرة، كنا ذاهبين لجمع اللوز، حماقة كبيرة! المهم، كانت المسافة التي سنمشيها من القرية إلى جبال اللوز بعيدة جداً، ولكن، أخبرنا الرجل الذي كنا ذاهبين لمساعدته، أننا نستطيع أن نسلك طريقاً مختصرة، وأشار إلى واد واسع، تظهر من جهته الأخرى شجرة لوز وحيدة، وقال إن بقية الأشجار موجودة خلف منعطف الوادي، كان يركب حماراً يضع عليه جالوني ماء وأكياس خيش فارغة، كان منحدر الوادي يمتد حوالي كيلومترين، أرضه صخور متقاربة غير متساوية الارتفاع، اتساع الفراغات بينها لا يسمح بالعبور منه، لا توجد سوى طريقة واحدة لاجتياز الوادي، القفز من صخرة إلى أخرى، كانوا يسمونه «واد المَنَطّة»، عندما انتهينا منه كنا مصابين بالغثيان، فارتمينا تحت أشجار اللوز إلى ما بعد الظهر...
- هيا.. لا تقل إنك جعلتني أتغيب عن المدرسة لتحدثني عن «المنطّة»، كنت سأجري اليوم فحصاً للطالبات.
- في أي موضوع؟
- الشعر الصوفي.
- «بالله إن سألوك عنّي فقل لهم
عبدي وملك يدي وما أعتقته
أو قيل مشتاق فقل لهم
أدري بذا وأنا الذي شوّقته»
- من قال هذا الشعر؟
- لا أدري، لا تسألني.
- لا يهم، إنه جميل، يكلم الله دون خوف، ببساطة شديدة. سحر، اتصلت بك بسبب... تعرفين، ليس لدي الكثير من الأصدقاء، أردت التحدث إلى أحد عن شعور هجم عليّ عندما أفقت هذا الصباح، كنت أعد

فطوري، دهنت الخبز بزيت الزيتون، ونثرت فوقه الزعتر المخلوط بالسمسم ووضعته بالفرن ليتحمّص، هيأت الماء لصنع الشاي، بدأت الرائحة تنتشر في البيت، وعندما سمعت هسيس الزيت أخرجته من الفرن ووضعته على الطاولة، أقول لك هذه التفاصيل لتعرفي بالضبط ماذا حصل. أكلت اللقمة الأولى وشربت رشفة شاي، وعندها فقط انتبهت إلى أنني نسيت أن أضع النعناع في الشاي! فنهضت لأتناول عرق النعناع عن حافة طاولة المجلى فوجدته قد سقط في مصفاة الفضلات داخل حوض الجلي. كان عرقاً وحيداً أحضرته خصيصاً أمنذ مساء أمس، شعَرت لحظتها بالغضب، ولكني عندما استدرت عائداً إلى الطاولة، أحسست أنني لا أنتمي إلى ذلك الفضاء، وأن مشهد المطبخ والزعتر والشاي والرائحة أشياء ليست لي. تشبه مائدة أعدها شخص وغادر، ربما مات! ما رأيك؟ هل تعتقدين أني سأموت اليوم؟!

رمقته سحر بنظرة حانقة، نهضت وسارت صعوداً في المنحدر، رمت زجاجة العصير نصف الممتلئة خلف السور الصغير، حيث الأرض مغطاة بالأشواك، كان صوت ارتطامها ثقيلاً ومكتوماً لا يوحي بأنها انكسرت. التفتت بحركة مفاجئة، وعادت باندفاع نحو رائد الجالس على السور الصغير يحاول أن يحفر إسفلت الرصيف بقدمه، فركلت مقدمة حذائه، وصرخت بغضب:

– هل تسخر مني؟ ها... جعلتني أتغيب عن عملي، أنظر في وجهي! أنا من يستحق ذلك، ماذا أفعل هنا أصلا!؟

– سحر، ماذا جرى! صدقيني لا أكذب، ما قلته هو ما حصل معي.. بالضبط.

تناولت سحر حقيبتها التي ما زالت على السور واستدارت لتغادر، ولكنها تراجعت ووقفت أمامه، التصقت به، رفع إلى الأعلى وجهاً شاحباً، منهكاً، وبدا أنه على وشك البكاء، قالت له سحر محاولة ضبط ايقاع صوتها لتبدو هادئة:

– اسمع رائد، أولاً، يجب أن تنتبه لنفسك جيداً. ثانياً، يجب أن تعمل بجد لتحافظ على علاقتك مع من تبقى لك من أصدقاء. أنظر حولك، عليك أن تبدأ التفكير جدياً في معنى حياتك، ألا تسمع أخباراً! والجرائد، ألا تقرأها؟ إنها حياة مخيفة. بالكاد أستطيع... كل واحد يحتاج... ليتك تفهم!.

عامر..

عندما اجتاز عتبة المقهى لم ينظر حوله، لأنه لا يبحث عن أحد. اتجه مباشرة نحو أول كرسي فارغ وقعت عليه عينه، لا توجد طاولة أمام الكرسي، وإنما منضدة رفيعة بأرجل معدنية سوداء وسطح خشبي لامع، خلع قبعته التي تغطي صلعاً مبكراً بشكل لا يتناسب مع لحيته الكثة التي سببت له بضع نظرات ريبة من العجائز الذين يملأون المقهى. قاس مساحة سطح المنضدة، وفكر بأنها لن تتسع لقبعته وفنجان القهوة، كانت القبعة بيده عندما توقف أمامه النادل وسأله:

– قهوة سادة، وماء؟

– نعم، إذا سمحت، ولكن إذا أمكن أن يكون الماء بارداً أكثر.

عجيب أمر هؤلاء العجائز، بالرغم من أنني أجلس هنا دائماً، إلا أنهم يرفضون الاعتياد عليّ، كأنهم يريدون إشعاري دائماً أنني دخيل عليهم، أنني أحشر نفسي في بيتهم الخاص، لا يوجد إلا شاب آخر في المقهى، وهو

الذي يحتل كرسي الباب في قلق واضح، ويظهر أن «الأرجيلة» وكأس الشاي الكبيرة لا تأخذ مفعولها في ترويقه، ويواصل النظر إلى خارج المقهى عبر اتجاهي الشارع، ثم يدور بنظرات ضجرة تلف العجائز من حوله. زبائن المقهى الأساسيون هم موظفون متقاعدون، تجار مسنون تركوا أعمالهم لأبنائهم، مغتربون عادوا بعد سفر سنين طويلة يتحدثون بلغة مكسورة، منسية، وكلمات أجنبية يسدون بها فراغات حديثهم. . .

ليتني أفهم أفكار «عبّاد»، مدير غريب، أكثر ما يزعجه هو أن أكون صادقاً في أي شيء! قلت له أريد إذن مغادرة لسبب شخصي، فقال لي إنه لا يستطيع إعطائي إذناً إلا لأمر يتعلق بعمل من أعمال «الدائرة». قلت إنها مسألة خاصة تماماً، رد بوضوح لا تقل ذلك، قل بأنك ستقوم بعمل ما «للدائرة» ولن تكون مشكلة في المغادرة، إنها مسألة شكليات لا أكثر، قلت «إذناً» حسناً، لدي عمل خارج «الدائرة» يجب أن أقوم به، لم يسألني ما هو! اليوم سيجري عبّاد مقابلة مع طه، لا أريد أن أكون هناك، لا أحب أن أقوم بوساطة لأحد، ولكني فعلت ذلك من أجل طه، أتمنى أن لا يحرجني، أعرف أنه يكون غريباً أحياناً، بل ومزعجاً، ولكن من يعرف، ربما يحصل على وظيفة مثل وظيفتي، «مدير إعلامي»، أمر على عناوين صحف الصباح، قبل أن يحتجزها «عبّاد» في مكتبه، أطبعها في ورقة وأوزعها على موظفي «الدائرة»، هكذا ينتهي عملي وأترقب فرصة للمغادرة.

اخترت هذا المقهى بالذات لأحافظ على قليل من الخصوصية في الجلوس والتفكير، قفز الشاب الذي يحتل الباب عن كرسيه وغادر المقهى إلى سيارة «فورد» متوقفة في مكان ممنوع، كنت أنتظر مغادرته لأجلس على الكرسي المفضل، أخذت فنجان القهوة وكأس الماء وقبعتي وجلست في المكان الجديد، ومنه رأيت شرطياً يسير باتجاه سائق الـ«فورد» الذي انطلق فاراً من المكان، ابتسم الشرطي ولوح له بدفتر المخالفات مهدداً.

أستطيع من هذا الكرسي مراقبة «المنارة»، أسجل تفاصيل مشاهد تعجبني كمن يقوم بالتحضير لتصوير فيلم، أكتب عن تفاصيل المشهد، وإطاره، وزاوية الكاميرا، لا بد أن أقوم يوماً بعمل فيلم بطله «المنارة». يتجمع الناس، قامت الشرطة بإغلاق الشارع أمام حركة السيارات، يبدو أنها مسيرة، ترتفع رايات مختلفة، وعلم فلسطين. النادل أمامي يدير «المنقل» في الهواء ليشعل الجمر، للنادل، عدا عمله العادي، وظيفة معقدة، ولكن يبدو أنه اعتاد عليها، إذ لا أحد من العجائز يدفع طلباته الخاصة، وهي في العادة أرجيلة وشاي أو يانسون أو زهورات، فيقوم كل واحد منهم بدعوة أحد الموجودين الذي يختاره النادل، حيث يكون ثمن ما سيدفعه مساوياً لحساب ما أخذه، فيعلن النادل بصوت مرتفع أن «أبو جمال» دفع حساب «أبو حسن»، وأن «أبو قاسم» دفع حساب «أبو جمال»، و«أبو حسن» دفع حساب «أبو قاسم»، فيبتسم الرجال بسعادة وتربت أيديهم على صدورهم بحركة شكر وامتنان، إنها متعة بسيطة لكنها مهمة للعجائز.

توقف النادل في منتصف الحركة الدائرية إثر صوت سقوط وفوضى في الداخل، فتناثر الجمر على الرصيف. في الخلف، داخل المقهى، تجمع العجائز حول رجل مبطوح على الأرض، قام النادل بتفريقهم ليمر بعض الهواء، ولكن بدا واضحاً أن الرجل الملقى على الأرض لم يعد يحتاجه، مرت على العجائز دقائق

انتظار صعبة، تمتمات صمت وارتعاش ووجوه مصفرة، وآمل أن ينهض الرجل النائم من جديد. وصلت عربة الإسعاف، استدار سائقها بمهارة وعاد إلى الخلف بحركة مدروسة، كانت مؤخرة العربة داخل المقهى، وضعوا العجوز فيها وغادرت بالسرعة نفسها التي جاءت فيها. ظلّ الرجال في أماكنهم عدة دقائق، يتشاورون بصوت ورع والرعب بادٍ عليهم، ثم غادر الجميع دفعة واحدة، لم يبق أحد غيري. سألت النادل: «إلى أين ذهبوا؟»، أجاب وهو يجمع «الأراجيل»: «إلى الجامع»، وواصل عمله في قلب الكراسي على الطاولات، ثم قال بلهجة حاول أن تبدو حزينة غير أن الحنق رشح منها «سينتظرونه هناك ويصلّون عليه، ثم يأخذونه إلى المقبرة، وبعدها سيداومون ثلاثة أيام في بيت الأجر»، وواصل دون أن يوجه حديثه لي: «أعرف... أعرفهم، سيختبؤون في بيوتهم كأن عزرائيل ينتظرهم هنا، لن أرى وجه أحد منهم قبل أسبوع...». وبدأ بسحب الطاولات المحملة بالكراسي بطريقة مزعجة كأنه يطردني، فتناولت قبعتي وغادرت، لا أعرف إلى أين!

ما يشبه المقابلة..

لم أعرف كم كانت الساعة؟! كيف ارتديت ملابسي، وبأية طريقة وصلت؟ ولكن عندما نهض عبّاد عن مكتبه ونظر في ساعة يده، لاحقت الغموض الذي ينبعث من ساعات الجدران، فرأيتها معلقة على الحائط الأيمن، كانت العقارب تشير إلى الثامنة. حضرت نفسي جيداً لهذه المقابلة، سألت عامر عن كل شيء، كان رأيه هو أني سأحصل على الوظيفة، وقال: «عبّاد هو الوحيد الذي يقرر في مسألة الوظيفة وهو يحب أصحاب السوابق أمثالك»، لاحظ عامر نظراتي المتوترة، فأضاف: «لا تغضب، أنت تعرف ماذا أعني... إنه يحب المثقفين! المهم أن تقوم بكل ما يطلبه منك في المقابلة دون تردد، المقابلة هي الاختبار الوحيد الذي ستواجهه، ونجاحك يعني وظيفة ومرتباً تحصل عليهما دون تعب».

دارَ عبّاد من خلف المكتب، وقال بابتسامة خلتها غامضة: «أهلاً طه، مواعيدك دقيقة، أتمنى أن تنال هذه الوظيفة لأنك تهمني، نجاحك في المقابلة يعتمد عليك شخصياً، اتبعني من فضلك». وافقت «عامر» على رأيه، ولكني سألته: «ألا تعتقد أنه توجد حدود لما قد يطلبه! ما رأيك؟ إلى أي حد ينبغي علي أن أتجاوب معه؟»، رد عامر بتلقائية: «بلا حدود. إن لم تكن مقتنعاً بذلك فلا تذهب إلى المقابلة».

أردت أن أعرف أكثر، فقد بدا لي أن عبّاد يقوم بما هو أكثر من مجرد مقابلة عادية، سألت عامر مباشرة: «أنت مثلاً، ماذا حصل معك في المقابلة؟». أتذكر أنه لم يجب مباشرة، كنا ذاهبين إلى بيته، ولم أر وجهه عندما كان يفتح الباب، إلاّ أن صوت قفل الباب ملأ فراغ صمته، عندما استدار في الممر ليسحب المفتاح من القفل الخارجي كان يبتسم: «ما حصل معي قد يبدو الآن مضحكاً، ولكن حينها كان غريباً ومخجلاً بشكل فظيع، إلا أنني تحملت، لم يكن لدي خيار آخر، كانت حالتي تشبه حالتك الآن...» عندما دخلت ذلك الصباح إلى مكتب عبّاد، كانت الساعة الخامسة، ساعة غريبة لمقابلة عمل، قادني إليه الآذن وهو يحمل صينية عليها ركوة قهوة وفنجانان فارغان، استغرقنا الوصول إليه وقتاً طويلاً، الآذن يسير أمامي وأنا أتبع رائحة القهوة المنعشة، صعدنا

أدراجاً وعبرنا ممرات كثيرة، عندما وصلنا كنت توّاقاً لرشفة قهوة مع سيجارة. . . لن أتكلم عما حدث بالتفصيل، إلا أنه لم يقدم لي من تلك القهوة ولم يسمح لي بالتدخين، قدم لي ورقة، وقال إن فيها أحد الأسس المهمة للعمل معه، وطلب أن أقرأ ما فيها وأردده عشر مرات، كانت الكلمات مكتوبة بخط يدوي بمادة سوداء، ليس قلم رصاص أو فحم، على الأغلب أنها بقايا عود ثقاب محترق: «الكذب كالبراز، لا أحد يحب رائحته، ولكن، على الجميع القيام به».

طلب أن أتبعه، سرنا في ممر ضيق قادنا إلى دورة المياه، كانت مغلقة ومعه المفتاح، دخلنا فأغلق الباب من الداخل، وأقول لك بصراحة إنه لم تتح لي فرصة أن يساورني الشك، لأنه بدأ فك حزامه وأزرار سرواله، لحظات عصيبة عشتها، كان عليّ أن أتخذ قراراً حازماً وسريعا، هل أتراجع؟ أم أواصل إلى النهاية! قررت أنني سأتراجع، لا أريد عملاً بهذا الثمن، ثم انتبهت إلى الفارق الواضح من حيث البنية الجسدية بيني وبينه، وهو فرق لمصلحتي إذا احتاج الأمر ذلك، فقلت لأنتظر وأرى ما سيحدث، حرّر سرواله وتركه ينزلق إلى الأرض، ثم سحب سرواله الداخلي إلى ركبتيه فأدرت وجهي جانباً، ولكن قراري صار واضحاً، إذا طلب أن ألوط به فسأفعل، أما إذا أراد العكس فسأتراجع، طلب مني أن أخلع ملابسي، كنت أرتدي جينزاً ضيقاً استغرقني خلعه وقتاً طويلاً وهو يراقب ساكناً، لم أستطع توقع ما يريده مني، سحبت سروالي الداخلي إلى الأسفل قليلا، فطلب مني أن أنزله أكثر، فدفعته نحو ركبتي، نظر إلى منطقة عريه فلاحقت نظراته، كان عضوه كبيراً بشكل لافت للنظر، ثم نظر إلى منطقتي، كان شعر عانتي كثاً، ولا يكاد عضوي يظهر من بين الشعر، نقل نظراته بين عضوي وعضوه وأنا أراقبه، كان واضحا أنه يقوم بمقارنة اعتاد عليها مرات ومرات، ثم قال لي: «ارتد ملابسك واتبعني لأدلك على مكتبك. . . نجحت في المَقابلة».

عندما روى لي عامر ما جرى معه في المقابلة، قلت له: إني لست معنياً في هذا العمل، لا أريده، فقال لي: «لا تكن سخيفاً، أنظر إلى نفسك، إنها لا شيء». توقف عبّاد أمام باب كبير وقال لي: «هنا ستجرى المقابلة، ولكن أعذرني فأنا مشغول، سيقوم مدير التوظيف بإجراء المقابلة معك، أتمنى لك النجاح». كنت مشوشاً ومتوجساً، حتى الآن لم يحصل شيء مما أخبرني عنه عامر، قلت لعباد: «شكراً لك أستاذ عبّاد، أنا ممتن للغاية، كما آمل أن أكون عند حسن ظنّك». قرعت الباب بهدوء، وقرعته مرة أخرى بصوت أعلى، فقال لي عبّاد وهو في نهاية الممر: «افتح الباب، لا أحد في الداخل».

لم تكن دورة مياه! غرفة مستطيلة دون شبابيك تشبه ممراً واسعاً، ومع الجدران الرمادية العارية تكوِّن منظراً بائساً وصارماً معاً، لا يوجد فيها سوى مكتب حديدي خلفه كرسي جلدي قديم بلون أسود باهت، وأمامه كرسي له أرجل حديدية ومقعد خشبي رأيت بابا آخر عدا الباب الذي دخلت منه، كأني كنت في هذا المكان من قبل! لا، لم أكن، ولكنه يشبه ما رسمته في مخيلتي عن مكاتب المخابرات على الحدود البرية، في كل سفر خيالي قمت به دخلت غرفة تشبه هذا المكان! على سطح المكتب سيجارة مطفأة تقف على عقبها، المنفضة ممتلئة بأعقاب سجائر بيضاء ماركة «مارلبورو لايت»، فيها عقب واحد بلون أحمر، يتناثر الرماد خارج المنفضة بكثافة وعشوائية، هل يمكن أن نعرف طبيعة الشخص

من بقايا سجائره؟
الهدوء الكامل والضوء الشحيح يعطيان انطباعاً بأنني في مكان بعيد. . . أشعر أن عامر أوقع بي، جرّني إلى متاهة هو فيها، غير أنني قلت لنفسي كما علمني هو: لأنتظر وأرى ما سيحدث، ربما لن يكون سيئاً! مع أن كل ما جرى إلى الآن يختلف عن رواية عامر. انفتح الباب الآخر فامتلأت الغرفة بأصوات حياة، أبواق سيارات، نداءات باعة، وشمس، ضوء بكمية كبيرة، لم أستطع بسببه تبين شكل الشخص الذي دخل، حتى أغلق الباب وجلس على الكرسي الجلدي، فعادت الغرفة كما كانت من قبل، صارمة وبعيدة في عزلتها، جلس دون أن يلقي التحية، يكبرني بسنوات قليلة، عادي في مظهره باستثناء شيء واحد، ملامحه حيادية تماماً، لا بد أنه تدرب جيداً كيف يرتدي هذه الملامح، لم أنتبه «للكأس» البلاستيكية إلا عندما سمعت صوتها في يده، ثم وصلت رائحة القهوة الكسولة القديمة، أخرج من درج المكتب عدة أوراق وحاول بوساطتها تنظيف سطحه، لكن الرماد تتطاير من المنفضة بكميات إضافية فكف عن محاولته. كان صامتا، وكنت واقفا أراقب. أشار بيده تجاه الكرسي الوحيد وقال: «أهلاً». فكرت أن من المفروض أن يقول مرحباً، إلا إذا اعتبر أنه موجود في الغرفة قبلي، هل كان يراقبني منذ دخلت!؟ هذه الفكرة، بالإضافة إلى أنه لم يحضر لي معه قهوة ولم يسألني حتى من باب المجاملة، وضعتني في جو من التحفز وفي داخلي بدأت الدفاعات تبنى بشكل آلي، قلت: «أهلاً». سكب بعض القهوة في المنفضة فهفت الرماد وأصبح بإمكانها أن تستوعب المزيد، فتح الدرج مرة أخرى وأخرج قلم رصاص وأمسكه بيده اليسرى، كان أعسر، قرّب الورق الملطخ بالرماد، مسحه بيده ونظر إليّ بامتعاض وسأل «ما اسمك؟».
لم يقتصر الأمر على شكل الغرفة، وها هي الأشياء تسير بالطريقة المخابراتية التي رسمتها في مخيلتي، إن كان عامر شعر أنه مكره على قبول وظيفة من عبّاد تحت كل الظروف، فأنا الآن لا أحس بذلك، لا أريد هذه الوظيفة، لا أريد أن أعمل أصلاً، وعندما بدأت تأخذ هذه الفكرة حجماً مناسباً في داخلي شعرت بالراحة، واعتقدت أن بإمكاني التنغيص على من يقابلني. ابتسمت بسخرية وقلت له: «عفواً، هل أنت متأكد من أنك في المكان الصحيح؟»، نظر إليّ مستفهماً ولم يجب، فأكملت: «أقصد أنني هنا لمقابلة عمل، والذي سيجري المقابلة لا بد أنه يعرف اسمي. . . وأكثر!». كانت ردة فعله مفاجئة لي، إذ ضرب على المكتب بقبضته وصرخ بهيجان: «أنت أسفل مما توقعنا، يا ابن . . . ، سأسألك وستجيب دون تذاك، واضح؟». كانت البسمة ما زالت معلقة على شفتيّ، فقلت له بهدوء: «كل ما تحتاجه من معلومات موجود في الملف الذي قدمته للأستاذ عبّاد، على كل حال لم أعد أريد هذه الوظيفة، لا أريد أن أعمل هنا».
لم يكن الجالس أمامي يتوقع بأي حال من الأحوال أن تسير الأمور بهذا الاتجاه، ألقى قلم الرصاص على المكتب فتدحرج مصدراً صوتاً ناعماً، أشعل سيجارة «مارلبورو لايت»، وبدأنا صمتاً استمر فترة طويلة، كنت أنتظر أن يعلن انتهاء المقابلة. انقطع الصمت بدقات هادئة على الباب الذي دخلت منه، وانفتح على وجه عبّاد الهادئ، قال: «طه، أرجو أن ترافقني إلى مكتبي»، نهضت وقلت للجالس خلف المكتب: «فرصة سعيدة»، نظر إلى وجهي ولم يجب، اكتفى بالابتسام، وسقط قناع الحيادية الذي يرتديه. في مكتب عبّاد جرت الأمور

بسرعة، أخرج من جيبه مغلفاً ومدّه نحوي، قال لي: «أنت متعب وتحتاج لبعض الراحة، خذ هذا المبلغ المتواضع، اعمل حفلة صغيرة، أدع أصدقائك، استمتع، خذ وقتاً إضافياً وفكر جيداً في مسألة الوظيفة... أنصحك باستشارة عامر، تعال إليّ في الأسبوع القادم لنتحدث».

•الغرفة صغيرة، تغطي معظم مساحة أرضيتها ثلاث فرشات مصنوعة من الإسفنج، موضوعة حول طاولة مستديرة من خشب الزيتون، قصيرة الأرجل، قديمة، لا يقل عمرها عن ثلاثة أو أربعة أجيال، عليها إبريق عصير برتقال، وعليها، أيضاً، أطباق صغيرة فيها بقايا مكسرات. رائد مستلق على الفرشة الوسطى، عند أسفل رجليه تجلس رانية على الفرشة الأخرى متكئة على الحائط وتمد رجليها تجاه طه الذي يجلس على الفرشة نفسها عند أقرب مكان إلى باب الغرفة، مقابله في الجانب الآخر من الطاولة يجلس عامر، وسحر مقرفصة قرب رأس رائد. عندما نهضت رانية وأطفأت الضوء الكهربائي وأشعلت الشمعتين الصغيرتين، كانوا صامتين، عادت وتمددت مكانها، ولكنها مدت رجليها أكثر حتى لامست جنب طه، الجو العام لا يشير إلى سهرة ممتعة.

مرّ وقت طويل وسحر تحدق برائد. كانت تحس بالندم، ما كان ينبغي أن أخبرهم بما جرى بيني وبينه، منذ أخبرتهم وهو يتحاشى النظر إليّ، لا يبدو عليه الغضب، ولكنه ثمل وبعيد، لو قال هذا الصباح إنه يحبني، لما حدثت الأشياء بهذه الطريقة، لقد أخطأت إذ كشفت ضعفه وخوفه أمامهم، خاصة أمام طه، رأيت في عينيه فرحاً متوحشاً لما جرى!.. ويمنحني هذا الشعور برطوبة جسدي، رائد يحتاج يداً تمسح على شعره، لعله يعود.

مدت رانية رجلها أكثر وأكثر، وغرزت كعبها في خاصرة طه.. فيه شيء غير قلق عينيه يسبب لي جفافاً في حلقي. أعرف أني تجاوزت كل حدودي، ومع ذلك أشعر برغبة شديدة في أن يحك كعبي الخدر، للحظات، عندما كنا في الخارج، شعرت بأنفاسه تلفح ظهري العاري، حولته إلى حقل من اللذة، ضوء الشمع يخفي احمرار الرغبة التي أحس بدفئها في وجهي، لو أنّ سحر تكف عن اللعب بشعر رائد، طه ساكن لا يفعل شيئاً، ولكن الرغبة تدفعني إلى مزيد من العناد.

عامر الذي أجهز على جزء كبير من عصير البرتقال، لا يشعر بحاجة للذهاب إلى الحمام، كانت معدته منتفخة وعلى وشك الانفجار، تفجّر خوفه منذ أخبره طه بأنه لن يذهب لمقابلة عبّاد مرة أخرى. عبّاد سافل لا يرحم، وسيحمله مسؤولية هذه الإهانة بصفته الشخص الذي رشح طه للوظيفة، وهو يعرف أن عبّاد قادر على تحويل حياته إلى جحيم لسبب أتفه من هذا، كانت النظرات التي يرسلها نحو طه تفيض بغضاً وكراهية لم يحاول إخفاءهما.

منذ البداية، تبين لـ «طه» أن السهرة تمضي نحو الفشل، لكنه لم يكن مهتماً، كانت بالنسبة له تسلية ممتعة بمعزل عن شعور الآخرين، سواء أحبوها أم لا! ولكن هذا لن يمنعه كمضيف من أن يقوم بواجب الضيافة، خاصة أنه لم يرد الاحتفاظ بأي شيء من مال عبّاد فأنفقه على المشروب والطعام والمقبلات، إلا أن قدمي رانية تشغلانه عن تأدية هذا الواجب! كانت تغرز كعبها في خاصرته، سحب طه يده ببطء إلى الأعلى وحك باطن قدمها، فأحس برعشة الجلد السميك تحت رؤوس أصابعه، كان الوحيد الذي يمكنه ملاحظة يدها داخل بلوزتها تعجن

صدرها دون توقف. قرر طه أن يتوقف، إذ لم تعد الأشياء مجرد تسلية ومماحكات، وهي تسير في اتجاه خطر، بدّل من جلسته، أشعل سيجارة عبّ منها نفساً عميقاً، نظر ناحية عامر وسأله:

-ما رأيك بقليل من البطيخ والجبنة البيضاء؟

لم يجب عامر مباشرة، غيّر من جلسته هو الآخر:

- لمَ لا، مع أن معدتي ستنفجر.

نهضَ طه، ورفع الأواني الفارغة عن الطاولة، وأخذ معه أطباق المكسرات الفارغة. عندما سمع رائد صوت التحضير في المطبخ، نهض وقال بصوت مبحوح:

- لم أعد أطيقه.

وردت سحر بتلقائية:

- وأنا، أيضاً.

عاد طه من المطبخ يحمل معه طبقاً كبيراً وضعه على الطاولة، فيه بطيخة مقشرة كاملة الاستدارة، وأربع شوك، وطبقان فيهما جبنة بيضاء مشرحة، قال لرانية:

- عليك تقطيعها.

التقطت رانية السكين، رفعتها في وجهه وقالت بصوت غنج:

- ألا تخاف أن أقطعك معها.

فرد عليها ضاحكاً:

- تحت أمرك.

أعاد عامر صحنه فارغاً إلى الطاولة وقال:

- ذكرني هذا الطعم بشيء جميل. تخيلوا كنت جالساً اليوم في المقهى، وكانت مسيرة على «المنارة»، وإذا برجل يموت.

شهقت سحر بخوف وسألت:

- كيف؟! بالرصاص؟

قال عامر:

- لا، إنه عجوز، أظن أنها سكتة قلبية. المهم، كنت أتخيل لو أني أقوم بعمل فيلم...

سأل رائد مستغرباً:

- ماذا يمكن أن تصور في رجل يموت؟!

عامر: لا، ليس هذا. كنت سأصور الناس القادمين إلى المسيرة، يتجمعون عند «المنارة»، وجوه بتعابير متنوعة، صغاراً، كباراً...

طه: كنت سترى شاباً في نهاية العشرينيات يقف أمام الدكان الذي يبيع الحقائب، يتفحص الحقائب المعلقة، يرفع يده ويدوّر في الهواء حقيبة سفر كبيرة، فيخرج صاحب الدكان، وينزل الحقيبة إلى الأرض، ينحني ويفتح جيوبها ويتكلم بطريقة تظهر أنه يشرح مزاياها للشاب...

رانية: وسترى في هذه اللحظة صبية من كتفها إلى الأسفل، ترتدي بلوزة ضيقة، وبنطالاً أبيض شفافاً يظهر من تحته سروال داخلي أسود، تسير على الرصيف، وعندما ترى البائع والشاب يفترشان الرصيف، تتردد قليلاً ثم تنزل عنه وتسير في وسط الشارع. وسترى وجوه المارة وأعينهم تحدق في مؤخرتها، وسيخرج أصحاب المحلات من الداخل ليحدقوا فيها، كما أن بائع الحقائب سينتصب ويحدق مع الشاب في مؤخرتها.

سحر: لماذا؟ ما الفائدة من هذه اللقطة؟

رانية: لإظهار كلبية الرجال، وكيف أنهم يدلقون ألسنتهم على مؤخرة امرأة دون أن يرى أحدهم وجهها.

عامر: ازداد عدد المتجمعين حول «المنارة»، أناس بتعابير مختلفة، بعضهم منفعل، بعضهم هادئ، بعضهم يقف جانباً كأنه مشاهد فقط، وأطفال يحشرون أنفسهم بين مجموعات الكبار. أحد الكبار يحاول إمساك طفل داس على حذائه وهرب، ثم يرفع رجله ويبدأ تنظيف الغبار

عن سرواله، يخرج منديلاً ورقياً ويمسح حذاءه!
جلس رائد وأسند ظهره إلى الحائط ومد رجليه فلامست الطاولة.
رائد: وعلى طرف «المنارة»، هناك رجل عجوز داخل الحوض الترابي الكبير، يحمل بيده فأساً صغيرة لها ذراع قصيرة تشبه ذراع المطرقة، ينكش التراب حول زهور صغيرة غضة، ومع ذلك لها أزهار كبيرة.
عامر: ثم صعد أحد الموجودين إلى حافة «المنارة»، بيده مكبر صوت يدوي، وبدأ يلقي خطبة بصوت مبحوح، لا أحد كان يفهم ما يقوله، مجرد أصوات مبحوحة تختلط أحياناً بنشاز مكبر الصوت عندما يصدر طنيناً مزعجاً، تقدم ناس من كل الاتجاهات، صاح أحدهم بصوت قوي طغى على صوت الخطيب: «الله أكبر». سكت الخطيب وترك المجال لبعض الأصوات التي رددت خلفه «الله أكبر، الله أكبر»، ثم واصل خطبته.
طه: في الإطار الواسع سنظل نرى الشاب الذي تراجع عن أخذ الحقيبة الكبيرة، وأنزل له البائع واحدة من الحقائب الصغيرة، تفقدها، ويبدو أنها أعجبته، وبدأ يساوم البائع على ثمنها. . . فيدخل البائع ومعه الحقيبة، بينما يُخرج الشاب نقوده، يعود البائع من الداخل وقد وضع الحقيبة داخل حقيبة ورقية أنيقة، عليها صورة مغلف بريدي فوقه وردة حمراء كبيرة، يستلمها الشاب وينظر إليها مطولاً بشكل يوحي أنها أعجبته، ويسير نحو المتجمهرين على المنارة.
رائد: الرجل العجوز الذي يعتني بالأزهار يرفع فأسه الصغير ويلاحق أطفالاً دخلوا الحوض ليطردهم منه. لكن بازدياد عدد المتجمهرين وضيق المكان، يبدأ الناس التوسع إلى داخل الحوض، وعندما يفتح يديه محاولاً منعهم تأتي موجة أناس جديدة لا يتمكن من مواجهتها فيبدأ بالصراخ.
طه: الشاب الذي اشترى حقيبة السفر الصغيرة هو أحد القادمين الجدد الذين وقفوا في الحوض، نراه يحاول تهدئة عجوز رائد، لكن العجوز عنيد وصوته عال، فيبدأ توجيه شتائم للجميع، أعداد كبيرة من الواقفين تستدير نحوه وترمقه بنظرات غاضبة. يلقي العجوز فأسه جانباً، ويجلس على طرف الحوض، يدخن سيجارة وينقل عينيه بين بقايا أزهاره، نرى دمعتين تتجمعان في عينيه. تصدر سحر أصوات طرقات بلسانها دلالة على الحزن والأسى، وتنظر ناحية رائد.
سحر: مسكين هذا العجوز.
عامر: واصل الخطيب إصدار أصواته غير المفهومة لسواه، ترافقها «زعقات» من مكبر الصوت، وبدأت تتزايد أصوات الناس الذين يهتفون بصوت أقوى: «الله أكبر»، يرفعون قبضاتهم الغاضبة إلى الأعلى والأمام، فتبدو أنها موجهة صوب الخطيب تطالبه بالصمت! لكنه يظهر قدرة على التعامل في مثل هذا الوضع، فينضم إلى هتافهم «الله أكبر»، ولكنه يشير بقبضته نحو طرف المدينة، ثم يقفز عن حافة «المنارة» ويسير في الشارع مواصلاً هتافاته الأولى، وخلفه مجموعة لا بأس بها من الناس.
رائد: عندما يغادر الناس، ينهض العجوز ويلتقط فأسه المغروسة في الطين، يتفقد أزهاره، معظمها مسحوق تماماً، يحاول رفع ما نجا منها، وينكش من حولها الطين المتصلب. يعب طه شهقة هواء كبيرة بصوت مسموع، ويبحث عن سجائره، فيشعل واحدة بيد مرتجفة، كان ممتناً للشمعتين اللتين ما عاد ضوءهما يكشف شيئاً.
طه: الشاب الذي راقب المسيرة وعجوز الحوض، عاد إلى دكان الحقائب، يقف مرة أخرى عند الحقيبة الكبيرة،

فيظهر البائع عند الباب مترقباً، فيما يسحب الشاب الحقيبة الصغيرة ويشير للبائع إلى أنه يريد الكبيرة، ويساعده في إنزالها. يمر وقت وهو يحاول حشرها في الحقيبة الورقية ذات الوردة الحمراء الكبيرة. تقول رانية بلهجة ساخرة توجهها نحو طه: تعود الصبية من الاتجاه الذي غابت فيه، ومع أنها تراهم يسدون الرصيف ويحاولون حشر حقيبة كبيرة داخل حقيبة صغيرة، إلا أنها تواصل تقدمها نحوهم دون تردد، فيما هما غافلان عنها إلى أن صارت جوارهما، فيرى الشاب أمام عينيه مباشرة سرّة الصبية التي تكشفها البلوزة الضيقة القصيرة، فينفصل عن البائع مفسحاً لها الطريق، تمرّ من بينهما على مهل، وتظهر مؤخرتها داخل السروال الداخلي الأسود تتحرك بإغراء مقصود.

طه: عندما يشاهد الشاب صبية كرانية، يتوقف عن محاولة حشر الحقيبة، يعطيها للبائع ويلحق بالصبية محتفظاً بالحقيبة الورقية فارغة، ويقترب منها بسرعة ملحوظة. حاول طه أن يلمس رانية بيده، إلا أنّ جسدها كان متصلباً بشدة، فقرصها، فأطلقت صرخة مفاجئة: «آخ، يا ابن الكلب!». وأكملت صراخها وهي تقف متظاهرة بالفزع «السافل، يحاول أن يضع يده عليّ!». نهض الجميع، كان رائداً ممسكا بزجاجة، فقذفها نحو طه وهو يشتمه: «حقير، عرفت منذ البداية أنك منحط». من خلال الضوء الشبحي الذي ترسله بقايا الشمعتين، رأوا طه يتثنى وينحني من ألم ضربة الزجاجة التي أصابت صدره، لكن رانية التي رأته ينحني نحو الطاولة سارعت بالتقاط السكين الطويل من طبق البطيخ، ووجهته نحو معدته بضربة سريعة، جأر طه من الألم ومد يده فالتقط زجاجة ضربها عشوائياً، انكسرت على الحائط وارتدت شظاياها على الجميع، اندفع طه نحو رانية التي لا تزال تمسك بالسكين، قذفه عامر بزجاجة فترنح بتأثير الضربة، أنهى رائد بضربة من السكين التي أخذها من رانية مقاومة طه، فسقط على الطاولة فوق طبق البطيخ والزجاجات التي تطايرت في كل الأنحاء. لم يعد هناك ضوء، كانت سحر تقف في مكان بعيد وتصرخ: «توقفوا... توقفوا... لقد مات!». انحنى عامر فوقه، فسألته رانية: «هل مات حقا؟!» فقال: «نعم». تساءل رائد: «ماذا سنفعل؟». قال عامر وهو يسير نحو الباب: »لم يبق الكثير لطلوع النهار، علينا أن نأخذ كل أغراضنا ونغادر». كانت سحر تبكي: «اللعنة عليكم! اللعنة». أشعل عامر الضوء، كانت الغرفة مملوءة بالدم والبطيخ المهروس وقطع الزجاج، أيديهم وملابسهم ملطخة بالدم، نصف طه الأعلى على الطاولة والنصف الآخر على الفرشة، فمه ملوي على صرخة ألم، عيونه مفتوحة، قال عامر وهو ينظر نحو رائد ورانية: «هيا، سنغتسل».

عند الفجر

البلبل لا يعود إلى البداية، ولكنه يكمل لحنه من حيث أنهاه في مساء مضى. هكذا يفاجئ الأشياء بندائه العميق المدوي باحثاً عن الكمال، حتى أنه يربك الفجر فيشقه من ناحية الشرق بشمس باردة، وعند الغرب بريح غافية تسحب أوراق التّوت إلى بلاط بيوت مشرعة الأبواب.
نهض طه الذي يرتدي دمه ونهاية رغبته، يجمع أوراق التوت من داخل البيوت ويعيدها إلى مكانها، تحت الشجر، كأنه عرف أن بعض ما يقوم به الموتى هو أن يجوبوا الأمكنة لتصحيح ما تخطئ به الريح.

---

* قاص فلسطيني يقيم في رام الله.

عطر الجراد

هداية شمعون*

شيء ما يتمزّق . . يداي مشتعلتان . . يولد منهما الشوك، وفي ولادته عذابي . . أشعر بشيء لزج دافئ يسيل منهما . . لا أقوى على رفعهما . . المكان مظلم . . لا أرى أحداً . . صوتي مكبّل بجراحي . . سوط ينزع عقلي . . يهدم آخر أسوار مقاومتي . . أصرخ . . فلا تتجاوز صرختي شفتيّ، أقمعها . . أموت و لا أصرخ . . ألمي رهيب . . جرحي يسيل . . جاء صوتها كفحيح ثعبان . . .

– اعتذري لي و سأتركك حالاً . .

استجمعت كل قواي كي أراها . . ها هو ظلّها، سأبصق في وجهها حين تقترب، حاولت رفع رأسي، ولكني الآن تعرفت مكاني، إنها أرض الزنزانة، مكبّلة يديّ وساقي، إنها بقربي . . لا إنّها طاولة صخرية نعم . . أراها الآن . . هتفت بصوت هزيل: لا . . لا . .

مزقتني بسطو من لهب . . صرخت . . لم أفلح في كبت الألم . . انطلقت صرختي كطائر فينيقي جريح . . لتزيدها وحشية . . علا صراخي من جديد . . ضربتها هوسة مجنونة في قتلي . . تسارعت الضربات . . وتسارعت دقّات قلبي . . رأيت أشباحاً أخرى تدلف إلى المكان الحديث، لا أفهمه جيداً . . قواي تخور . . لجّة من الضباب تحملني بعيداً . . بعيداً . . أسقط في عالم اللاوعي . . أبواب تغلق . . تفتح مرة أخرى . . ألمح طيف أمل . . صديقتي . . أتوه في بلاد الضباب . .

ساعة . . ساعتان . . يوم . . لا أعرف . . شعرت بألم رهيب يدكني في رأسي، أفتح عينيّ، أتلصص على نور ضعيف ينزلق من سدّة الباب . . يطلُّ وجه أمل مبتسماً . . حمداً لله على سلامتك . . كيف تشعرين الآن؟ . .

حاولت النهوض فلم أقوَ، سارعت أمل نحوي تسندني على حافة السرير . . وهرعت أخريات كن معنا في الغرفة . . يشيعنني بنظرات الشفقة والمحبة . . هتفت إحداهن: لو اعتذرت لها لجنبت نفسـ . . .

بترت عبارتها حين هتفت بها . . لا تقولي هذا . . لا تحطميني الآن . . لم أكن لأفعل ذلك أبداً . . كرامتي هي حياتي . . التصقت أمل بي تهدئني . . لم تقصد أحلام ذلك . . لقد كنت في قمة الشجاعة و الروعة، كلنّا نحسدك لما فعلت، وأردفت بانفعال: لو كنت مكانك لفعلت ذلك حتماً . . ارتفعت الهمهمات بالموافقة والتشجيع . .

أشحت بنظري عنهن، شعرت في لحظة بآلام رهيبة . . حدقّت في يدي ما زالت محاصرة بلفائف بيضاء . . همست أمل : لقد افتقدتك بالأمس كثيراً . . تطلعت لها . . قلت بوهن : لم أنسك لحظة . . فقالت ممازحة : و أيمن . . ألم تنسيه، أيضاً؟ تبسّمت بالألم . . إنه لم يرني منذ خمسة شهور، يدعي أنه مشغول بالعمل . . فهتفت : لا بدّ أنّه محقّ . .

– هند . . كيف أنت؟ . .

هتفت عبر القضبان المتشابكة : بخير .

– تبدين متعبة . . ما بك؟

– لا شيء . . لا شيء . .

– هند أخبريني ماذا حدث !!

– . . .

– لم يتبق سوى ثلاثة شهور أليس كذلك ؟ . . ما بك؟ . . ما هذه الكدمات ؟ . .

– أين أمي ؟

– إنها متعبة قليلاً . . لذا ارتأيت أن آتي وحدي .

– ما بها؟

– بخير، فقط . . الطريق شاق وطويل جداً بالنسبة لها . .

– بالله عليك إيتي بها . . و أخبريها أنّي أحبها . . أحبها . . أحبها . . .

– بلّلت دموعي قضبان السجن ووجدتني أهيج شوقاً لرؤيتها . . كم أتمنى أن أحطم الأسوار لأراها . . أقبل أناملها . .

– هند . . أنا صديقتك ألن تخبريني بما يزعجك ؟ . . أخبريني هل حدث شيء . .

– لا، فقط أمي لم تأتِ اليوم لزيارتي، وأشعر بوحشة رهيبة دونها . .

لقد اعتدت أن أقمع كل أشواقي ومحبتي حتى تأتي كل شهر مرة لأراها . . إنّه اليوم الذي أعيش من أجله . . حتى أراها ولم تأت . .

– عسى المانع خيراً . . ستأتي في الزيارة القادمة، لا تقلقي . .

ارتفع بوقهم اللعين . . الخروج من الزنازين . . ابتدأ العد . .

طيفها لم يبرح مخيلتي ، أمحو الأيام محواً من خارطتي، أسابق الأرقام حتى يأتي يوم الثالث والعشرين، أنتظرها على أحرّ من الجمر . . هرولت أرتّب هندامي وأبلّل خصلات شعري المشعَّث . . تقافزت إلى الحافلة التي ستقلنا إلى مكان الزيارة، لم أستطع الجلوس، لكزتني جندية بمدفعها أن ألزم مكاني . . لم أحفل بشيء . . قفزت فور وقوف الحافلة . . اندفعت الوفود من الجهتين . . أوصدت أبواب الممرات . .

– إسماعيل لمحته من بين الوجوه ، كوفيته أثارتني . . كانت مهدلة على كتفه دون عناية ، غير حليق ، كأنما بُعث من القبور . . حدقت . . به انتزعت لنفسي مكاناً بين السجينات . . هتفت : ما بك؟ . .

– كيف حالك؟ . . قالها بصوت إلكتروني . .

– ما بك ؟ . .

– لا شيء . . ابني الصغير مريض ذهبت به إلى المستشفى . .

– أهو بخير الآن؟

– نعم . .

– . . و . . . و أمي . .

أشاح بوجهه عني، وقال بغضب :

– قلت لك : إنها كبيرة السن لا تقدر على قطع المسافة

إلى هنا . .
أطرقت برأسي . . وتماسكت قائلة متجاهلة غضبه . .
– أستحلفك بالله كيف حالها؟
نظر إليّ . . عيناه غارقتان بالدموع . . أمسك كوفيته وأدار ظهره لي . . . ومضى . . صرخت . . إسماعيل . . توقف الناس عن الكلام . . إسماعيل . . هرولت أجري بمحاذاته . . أرى الكوفية ولا أراه . . تعثرت . . هرعت خلفي مجندتان . . طرحتهما أرضاً . . لا أرى غير الكوفية ووجه أمي . . إسماعيل يملك المفتاح . . احملوني إلى أمي . . تكاثفت المجندات، ألقين بي في جيب عسكري . . ارتفعت الهمهمات . . مخالفة الأوامر . . سجن انفرادي . .
أفقت . . تحسست المكان حولي . . زنزانة رطبة . . في إحدى زواياها صندوق من الصفيح . . زحفت حتى الباب، لم يكن بمقدوري الوقوف، فقط، أن أمدّ جسدي، نظرت من فتحة صغيرة بالباب . . هنالك عين أخرى تحدق بي، تراجعت . . تملكني الخوف، عدت إلى مكاني ألهث، ما بي . . مضى عام ونصف لم أخف أبداً في هذا المكان الموحش، لاح طيفها، أمي . . إنّها مريضة، أنّى لي أن أقبل أناملها . . . يومان . . ثلاثة . . لا أعرف كم مكثت . .
قالت لي بصرامة :
– يجب التزام الأوامر وإلاّ فلن تخرجي في موعدك . . مفهوم؟
أجبت باستسلام :
– مفهوم . .
– ضعي توقيعك هنا . .
– نعم . .
نظرت إليّ بشماتة . . لم ألتفت إليها . . شهر آخر لأراها، ربما أعيش مرة أخرى حين أراها . . شعرت بيد تساندني لقد سلمتني المجندتان للزنزانة من جديد . . أمل تقودني إلى سريري . . العيون من حولي . . الهمسات . . التفت المعتقلات حولي . . تجلدي . . اقتربت أمل بضعف بجانبي . .
– أمل . . هل رأيت إسماعيل يومها؟
أشاحت بوجهها ولم تجب . . تشبث بذراعها راجية . . لقد زارك أهلك، إنهم بالقرب منا . . لا بدّ أنهم أخبروك عنها . . انهمرت دموعها وابتعدت عني . . حدّقت فيها . . إنّها تعرف . . حملت أشلائي نحوها . .
– لقد أخبروك . . إ . . إنّها مريضة . . إنّها . .
أمل . . أخبريني . . هل ماتت؟ أخبريني، لن أموت . .
هرعت أمل نحوي تحتضنني . . جحظت عينيّ، إنها تقول: نعم . . أمسكت بها بقوة خارقة . . اخترقتها بنظراتي . . عيناي تثقب عينيها . . أشرت لها نعم . . فهزت برأسها . . تركتها تبكي . . اتجهت صوب سريري، جلست، تحلقن حولي، لم يشأن إشعاري بذلك، لم أرهن، فقط، طيفها في عينيّ . . في رأسي . . في فلكي . .
الصباح يشرق . . موعد الطعام يحين . . العد اليومي يستمر . . و أنا في سريري . . أناجيها . . أمي سأخترق البحار سآتي لك . . سأحفر قبراً بجانب قبرك لأحميك . . لأنهض صباحاً في حضنك وأنام معك في التراب . . سأرقد بجانب كهفك أحمي وطني . . أحمله لأجلك . . لنحلم معاً . . لنبقى معاً . .
– هند . . هذه كل حاجياتك، تقدمت «أمل» و عيناها مليئتان بالدموع . . .
– سأشتاق إليك، لا أعرف كيف سأستمر دونك . .
تبسّمت لها . . سأزورك حتماً . . انصهر جسدانا، ذابا

في مشاعر إنسانية خالدة . . هذا ما نملكه للوطن . . لتبقى قلوبنا نابضة به . .

انطلقت الحافلة . . الطريق طويل وشاق . . هكذا قال إسماعيل يوماً . . نعم طويل . . طويل . . معبد بالشوك بالآلام . . بالدماء، العمران يظهر من بعيد، الحواجز العسكرية تكبل أنفاسي عند كلّ منحنى . . وطني محاط بالأسلاك . . وطني ممزق بأسلاك . . القبعات الحمراء تملأ المكان . . مدججة بالسلاح . . طيف أمي يعلو أشجار الزيتون . . رائحة الليمون تشيعني . . ترجلنا من الحافلة . . الهوية . . الحقيبة . . صورة أمي . . انطلقنا في حافلة أخرى . . مشينا كثيراً كثيراً . . حسناً حافلة أخرى . .

القضبان بداخلي تتمزق . . تزيد ألمي . . الصور تتشابك . . المخيم من بعيد . . الشوارع متفرقة . . الجدران عتيقة . . وجه أمي يعلوها . . تجاعيدها ترسم المخيم . . يداها تحمل الوطن . . تحيطها شجرة الزيتون . . هند . . استفقت من عالمي . . العربة توقفت . . الفتيات هرعن لصدور أمهاتهن . . تمنيت أن أهرع مثلهن . . حضنها أكبر من الوطن . . القبلات تتراشق . . وقبلاتي صامتة تنطبع على طيفها . . عيونهن تزغرد . . قلوبهن تتقافز فرحاً . . أمي . . أمي . . لماذا تحرمينني من أروع اللحظات؟

– هند . .

تلقفني إسماعيل بأحضانه، وجدني باردة، متصلبة . . تراجع قليلاً . . تهاوت مني الكلمات . . ألقيت بحقيبتي، ها هو الباب . . لقد وصلنا إلى البيت، تقدمت عبر ممر بيتنا الطويل . . وقفت ببابها، حثني إسماعيل على الدخول إلى غرفتي . . نظرت إليه . . تركني ووقف صامتاً . .

تقدمت إلى سريرها . . هي ذي تبتسم . . تستقبلني بحفاوة . . تقبلني . . نذوب في أحضان الحبّ معاً . . صوتها لا يسمعه إسماعيل . . صوتها بداخلي . . صورتها محفورة في ذاكرتي . . في رسمي . . في عمري . . في مولدي . . هنا جلست . . هنا قالت . . هنا كانت . . .

هرولت إلى غرفتي . . تمنيت أن أبكي . . أمي والوطن . . معتقلي . . إنهما قضيتي . . جاءت الوفود المهنئة بالخروج . . التهاني . . الورود . . لم أشعر بطعم الحرية . . أبداً . . الوطن لا زال مكبّلاً بداخلي . . أمي . . ما زالت في معتقلي . . وما زلت مسجونة برحمها . .

نهضت ذات صباح أخط رسالة إلى أمل . . أحدثها عن الوطن . . عن المخيم . . تقدّم إسماعيل . .

– لقد جاء أيمن . .

قلت بهدوء:

– دعه يذهب . .

– هند تريّثي . .

– غداً، سأذهب إلى الجامعة لأستكمل أوراقي . .

– هند . . .

– غداً سأبني وطناً . . بعلمي . . غداً سأرى أمي، حيث الكرمل، حيث أشجار الزيتون في بلدتي . . غداً . . غداً . . لدي حلمي .

قاصّة فلسطينية تقيم في غزة.

العاصفة

محمد الديراوي*

تناول معطفه . . وغادر المكان بارداً ، تركها خلفه دون كلمة اعتذار أو استئذان في مواجهة كرسي فارغ وكأسين نصف ممتلئين من مشروب لاذع الذي أيقظ اللحم والذكريات في جسدين مكتظّين بالورد و الغناء ، يحتلاّن زاوية المقهى الأقرب للباب ، حيث يفضل أن يجلس دائماً عندما يكون في صحبة امرأة لا تستطيع اختراقه ، وعندما وصل إلى الباب ، صاحت : . . .

أقدامه لا تترك أثراً رغم الوحل الطري الذي يكسو وجه الشارع ، المكان مهيأ لشيء ما ، البيوت على الجانبين تدلي ألسنتها للعابرين ، النوافذ مفتوحة تتقيأ أسرار المراهقين الذين ينسجون مغامرات هلامية خلفها ، والطريق ممتد يتواصل بعناد . . لا منعطفات . . لا شوارع فرعية ، ليس إلا حفر تتربص فرائسها بين المارة الذين ينظرون إلى الأعلى ، لا مفرّ من ألسنة البيوت البلهاء وحماقات المراهقين وتذمرات من يسقطون في الحفر ، الجميع يواصل بهدوء في هذا الطريق ، إلاّ ذلك العابث الذي بدأ المشروب اللاذع يوقظ الزلازل في لحمه ، و بدا هاجس التمرّد يصرخ في خطاه التي لم تعد تأبه بالحفر ، ثمّة طفل يستيقظ في داخله ، دماؤه ليست على ما يرام ، نباح الكلاب الذي يشعل جوع المتمردين ينمنم ذاكرته البليدة : عندما تنبح الكلاب فإنها تتنبأ بقدوم زلزال .

وبعد قليل لم يكن زلزالاً ؛ السماء تلبّدت بالغيوم ، هبّت الرياح ، وسقط المطر .

تناول معطفه . . و غادر المكان ، تركها خلفه تروّض موجها الهائج كقطة تبكي أحد أبنائها الذي أكلته حين أشعل الجوع كفرها . تتأمل مقعداً فارغاً وكأسين نصف ممتلئين ، و الحريق الذي بداخلها يتصاعد حتى ينفجر السؤال عندما يصل الباب ؛ حيث لم يلتفت عندما صاحت : . . .

الطريق يمتد بحمق كطفل عنيد ، ليس ثمّة نهاية لهذا السفر الهزلي الذي يعبث بمسافر يشق ضباب الطريق مشبعاً

بالهزائم والذكريات التي لم يُطفئها المشروب اللاذع، ما زال يسير منبعثاً من أحزانه الثقيلة؛ يواصل من حفرة إلى حفرة بلا منعطفات ولا شوارع فرعية، يواصل كمن يخرج من موته مبتسماً، السماء تلبّدت بالغيوم . . هبّت الرياح . . وسقط المطر .

عيونها التي اخترقت جسده الشفاف والتي تلّح الآن على ذاكرته . . سمرتها المعجونة برحيق سماوي خفيف القوام، صوتها الذي يواثب نغمات روحه، لمستها التي تزلزل عنفوانه وتذيب قالب الصوّان عن جلده المتحفزّ كفريسة تنام في عرين الأسد ، الوحيدة التي استطاعت اختراقه، الوحيدة التي تركته و لم يتركها هو كما يفعل مع الأخريات، الوحيدة التي قطفت ورده و تركته صحراء جرداء برمال ساخنة تلقنّه دروساً في عذابات الطفولة، مترنّحاً أمام كرسي فارغ وكأسين نصف ممتلئين، والعيون جميعها تشير إليه والابتسامات تمضغ رجولته؛ ذلك الطفل المكسور الذي تركته وذهبت دون كلمة اعتذار أو استئذان .

آلاف الصدور ذابت في حرائق أنفاسه، مئات العيون استسلمت للرقاد في جمر عينيه ، عشرات النساء حطمن زجاج كبريائهن أمام قصيدة دافئة تنزلق من رسائله ذات العطر الناعم، وآلاف آلاف النساء احترقن في مقاعدهن عندما تركهن في زاوية المقهى وغادر فجأة .

وحدها، فقط اخترقت هذا الصخري الشفاف .

تناول معطفه . . وغادر المكان، تركها تقاتل موجاً بربرياً في بحر جائع التقط ذبذبات فريسة مهزومة، امتص رحيقها وتركها ذابلة، بعد أن انتزع نشوة المشروب اللاذع من لحمها . « ليلة واحدة تكفي تماماً لامرأة عاجزة عن اختراق جسد شفاف لرجل أحمق مثلي، خلقت لتكون فريسة لرجل ناقص يبحث عن طفولته، وخلقت لأبحث عن امرأة تفترسني»، وعندما وصل إلى الباب، صاحت : . . .

الرياح تشتدّ ، والسماء تسكب شلالاتها كأنها تبكي ألف عام من ذكريات أليمة، و الطريق الأبله لا ينتهي، المطر يبلل عظامه رغم المعطف السميك واللحم الكثيف الذي أشعله نصف كأس من مشروب لاذع في حضرة امرأة مهزومة، كان يبحث عن أخرى يمتحنها في زاوية المقهى، لكن المشهد بخيل جداً ؛ كل من حوله رجال؛ كيف تختفي النساء من مدينة متحضرة تنادي بحرية المرأة وتتزعمها امرأة ؟! لماذا تختفي النساء ؟! هل سئمن الحرية في الشوارع وفضّلن لذّة الاستعباد في مضاجع أزواجهن، حيث لا تمتد أيدي القانون ؟ هل هاجرن إلى مدينة أخرى لاستعباد رجال آخرين؟ ربما وربما . .

ولكن ثمّة ما يطن و يدور في رأسه : هل اكتشفن أمره و أمر فرائسه اللاتي أسقطهن في جحيم المقعد الخشبي في زاوية المقهى فخرجن إلى الشوارع في هيئة رجال ؟ أنظاره لا تخترق جلد المعاطف والقبعات لكنه يستنشق عطش الأنثى الذي يعرفه جيداً في العيون، و تدحرج سؤال «لزج» من جمجمته، كان مرّاً قارصاً عندما علق بحلقه : كيف يصطاد امرأة في هيئة رجل؟

تناول معطفه . . وغادر المكان، كانت خلفه تجدف في هواء مشبع برائحة المشروب اللاذع، و تتخيَّل أجساد

رجال في دخان السجائر المتصاعد من زوايا المقهى المكتظّ بالأجساد، الطاولات التي تفصل العشاق تذوب في حرارة العناق، حيث تمتزج الأنفاس المشبعة بالقصائد الغرامية والغزل الصريح، امرأة وحيدة في زاوية المقهى تفتح ذراعيها و تضمّهما كمن تعانق جسداً زئبقياً انزلق من بين ذراعيها وطار هارباً، و عندما وصل إلى الباب، صاحت: . . .

ليس ثمّة أرض صلبة تحت طبقات الوحل ، يقتلع قدمه من الوحل الذي يشدها إلى الأسفل، ويقفز بها على بقعة تبدو أكثر صلابة يرتكز عليها لينزع قدمه الأخرى، والأرض تخذله في كل مرة فتتكسر قشرتها الصلبة ويشده الوحل ، حتى صار كمن يركض فوق الماء ملوحاً بذراعيه كما لو كان مشرفاً على السقوط من قمّة ما ، ينظر بأقصى طاقاته إلى الأمام، لا نهاية لهذا الطريق الذي يطعن الأفق في البعيد، ليس إلا السماء والأرض في مشهد العناق الأزلي على حافة العالم.

الأمطار ما زالت تنقر جمجمته في عناد متواصل، والوحل الذي يتسلق جسده يتجاوز ركبتيه، وما زال على حافة السقوط يلوِّح بذراعيه، جميعهم يحملون مظلاتهم ويحتفظون بمعاطفهم وقبعاتهم جافة، وخطاهم واثقة تطرق وجه الوحل الذي ينكمش تحت أقدامهم، وأشعة الشمس تنمنم مظلاتهم الملونة.

ارتعش فجأة عندما انفجرت البراكين الراقدة في أعماقه، وتطايرت ذراته في دوامة السؤال الذي انزلق فجأة إلى صدره: وحدي بين العاصفة والوحل، جميعهم يرفعون مظلاتهم في وجه الشمس ، ليس ثمة أمطار تطرق جماجمهم، كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟!

و كمن نسي شيئاً وتذكّره فجأة، صاح: . . .

تناول معطفه . . وغادر المكان، وحدها بين نظرات الرجال وكأسي نبيذ، ومشاهد العناق تلسع جرحها المستيقظ، كم كان قاسياً ذلك القاتل العبقري الذي اكتشفت جسدها على شفتيه، وألقاها طفلة جائعة تصارع رغبتها الملحّة على مقعد خشبي في زاوية المقهى حيث اشتعلت نيرانها عندما وصل إلى الباب، فصاحت ولم يسمع : نسيت المظلة.

---

* شاعر وقاص فلسطيني يقيم في باريس.

إسورة قديمة

سهيل أبو زهير*

هرول أهالي المدينة والمخيمات المحيطة بها صوب الصوت الذي ما زال منبعثاً من أعلى قمة على الطريق الشرقي . . . بعضهم يغدو وبعضهم يعود . . . امتلأت الشوارع والأزقة بالخوار المنبعث من عجل شرس متسمر فوق التلة . . تهامس الجميع : «ها هو السامري قد عاد إليكم من جديد . . جاء باحثاً عن سوار تدحرج عن عجله إلى هنا يوم نسفه» .

و ساعة بعد ساعة ، انتشر خبر العجل بين الأحفاد الذين تحلّقوا يسألون العجائز عن صدق الحادثة أو ادعائها ، فأكدوا لهم براءتهم من سوار كهذا . . ولكن لم يزل الخوار يملأ الفضاء ، والإنكار لا يفيد في شيء .

بدأ الأحفاد يتشاجرون ويتصايحون . . كلٌّ يحاول فرض تصوره على من سواه ، كثيرون هم الشّبان الذين اقترحوا نسفه من جديد ، تجمهروا في مسيرة واتجهوا شرقاً وهم يهتفون : «بدنا موسى من جديد» .

اختلط صوتهم بصوت العجل الذي تزداد حدّته لحظة بعد أخرى ، كادوا يتصارعون مع العجائز الذين اعترضوا مسيرتهم وهم يصرخون في وجوههم : « هذا عجل من حديد» ، تدافع أحد الشبان مع عجوز كان يعترض طريقه فوكزه الشاب فقتله ، وأمام هذا المشهد الأليم تراجع الشّبان منكسين رؤوسهم . . و تفرقوا .

اتفق العجائز على ضرورة الجلوس إلى السامري والتفاهم معه ولو كلفهم ذلك عشرين سواراً . . . دخلوا عليه ، انتظروه حتى انتهى من أداء طقوسه الخاصّة ، لاحظت الجماهير الباب يغلق فتفرقت من حول الخيمة المنتصبة هناك .

لم يدم الاجتماع طويلاً ، خرجوا من الخيمة وعلامات الدهشة بادية عليهم ، توجّه الوفد إلى المنصّة المعدة لإلقاء الخطب وسط المدينة ، كان الشبان والأطفال يسيرون خلفهم ، تجمهر الناس حول رئيس الوفد ، لكنهم لم يستطيعوا التقاط الكلمات إلا بعد أن ضاعفوا عدد مكبرات الصوت المحيطة بالميدان ، يومها بالذات اقترح رئيس الوفد توسيع الميدان ليتسنى اجتماع أكبر عدد من الناس في الأعوام القادمة . . واقترح ، أيضاً ، التعاون للبحث عن سوار العجل و إلا فسيحلّ عليهم غضبه ، وقدم لهم أوصاف السوار .

تهامس الشبان فيما بينهم : « لقد سحرهم السامري» .

فجأة سكن العجل وهدأت ثورته . . لقد وعدوه بالبحث عن السوار وما عليه سوى الانتظار وهم سيتكفلون بكلّ

ما يلزمه أثناء إقامته.
تنبه صياغ المدينة إلى دورهم المهم في البحث عن السوار. تباهى بعضهم بأنّ الخلاص سيكون على يديه، وبعضهم كتم رغبته بالغنى أو التقرب من السامري.
نظر أحدهم يوماً في معصم جارته التي مرّت من أمامه، لم يتنبه لتحيتها فظلّ محدِّقاً في السوار الذي يلفّ معصمها، لاحظت المرأة اهتمامه الزائد بذراعها فأسدلت غطاء رأسها عليه وأسرعت الخطى إلى البيت.
ردّد الصائغ في نفسه إصراره على امتلاك ذلك السوار ولو كلّفه كلّ ماله.. في المساء اعترض طريق زوجها وانفرد به جانباً، بدت السذاجة على وجهه، هزّ الرجل رأسه ثمّ وعده بنقل فكرته إلى زوجته.. دخل بيته وما هي إلاّ لحظات حتى وافقت المرأة، فلطالما حلمت ببيت كبير تملكه وتكون فيه سيدة.
قدم الرجل سوار زوجته للصائغ الذي - بدوره - سلمه ورقة تخلو من ذكر السوار، ويعده فيها بقصر فسيح.. طار بين السماء والأرض وما كاد يصل إلى بيته حتى وقف أمام الشقوق التي تتسع يوماً بعد يوم.. راح يحلم بقصره الموعود.
أقبل الليل وتسلّل الصائغ بالسوار إلى خيمة السامري، قدمه إليه واستمع إلى كلمات الشكر والثناء، ثم خرج عائداً إلى بيته.
تململت المرأة - يوماً - ثم صاحت بزوجها: «أين القصر يا رجل؟».. امتعض زوجها، خرج من بيته غاضباً فساقته قدماه إلى محل الصائغ، و كادا يتشاجران، تدخل الناس لكن الصائغ أقسم بأنه لن يعيد لهم ذرة من الذهب، وعليهم أن ينتظروا.
تقدمت المرأة بشكوى إلى الشرطة وتحوّل الأمر إلى المحكمة.. نظروا في القضية.. لم يجدوا في ورقتها ذكراً للسوار.. قالوا لها: «انتظري.. لديك وعد، فقط!».
تأكدت المرأة من ضياع سوارها فأصبح زوجها غريمها.. سعت للخلاص منه، و تطلّقا.
ومع طلوع الشمس صدحت مكبّرات الصوت من فوق المآذن: «العجل غادر المدينة.. الله أكبر.. الله أكبر».
تجمهر الناس فوق التلة الشرقية.. طلع عليهم ناطور المقبرة المجاورة، وأخبرهم أنه رأى الصائغ يعتلي ظهر العجل، والسامري يقودهما.. وأكد أنهم عرجوا قبيل الفجر على مقبرته ومكثوا فيها ساعة، و أنهم بنوا قبوراً كثيرة ثم ساروا جهة البحر.. أسرع الجميع إلى هناك وتنادوا: «هلمّوا إلى إسورتكم»... و ما كادوا يبلغون الشاطئ حتى رأوا السامري يلقي سواراً في البحر،.. مرّوا وهم يلوحون مودعين:
«إلى اللقاء.. إلى اللقاء.. ما زالت لدينا إسورة كثيرة».
نظر الناس في وجوه بعضهم.. تفاجأوا وأدركوا أنهم في زمان غير زمانهم.. عادوا إلى المقبرة الشرقية وتسلّموا مفاتيح بيوتهم.

---

* قاص فلسطيني يقيم في غزة.

الساعات الأخيرة

ختام محمد شويدح*

كان يجول يميناً ويساراً على غير هدى ، لا يدري ماذا يفعل ؟ وكأنّ كل شيء قد غُيِّب في هذه الأثناء ، يحمل وجهه معاني يصعب فهمها ، وعيناه الصغيرتان تتحركان حركة لا إرادية ، و يداه المرتعشتان ترفعان القبعة البيضاء التي تغطي شعره كل خمس دقائق ، وجسده يهتز كلما أحسّ باقتراب الساعة من التاسعة مساءً ، ثم ما يلبث أن يتمتم بكلمات مبهمة ، وكأنه يملك قاموساً لغوياً خاصاً به ، فينطلق وهو يردّدها إلى باب بيته المغلق بإحكام ، فيمد يديه الضعيفتين في جيبه ، مخرجاً مفتاحاً كبير الحجم ، ثم يضعه في ثقب الباب ، محاولاً فتحه ، فيتردّد في ذلك ، ويصمت برهة من الزمن ، و كأن مخاوفه قد بلغت أشدها أو كأنّه على موعد مع حدث جلل ، فيلملم ساعتها ما أبقت له الأيام من قوة ، وما أسبغ عليه الرحمن من إيمان وعزيمة ، متجهاً صوب سلم بيته الخشبي ، فإذا بقوة الإيمان قد سرت ودبّت في أوصاله ودمه ، محرّكة معها رجليه الضعيفتين وكأن الشباب قد عاد من جديد ، ليصعد إلى سطح منزله .

يبدو أن الشباب قد عاد من جديد ، ليصعد إلى سطح منزله ، و يبدو أن الشباب لا يدوم طويلاً ، فيسير بقدميه الثقيلتين نحو سور البيت ، ليرتكز عليه ، ناظراً بعينيه المنهكتين إلى السماء التي بدت أشد وحشة وظلاماً من ذي قبل ، حتى لم يرَ شيئاً من الشارع !! فأين شجرة الزيتون التي تقف عند رأس الشارع؟! وأين شاحنة «أبو علي» الرابضة تحتها؟! حتى الأصوات قد اختفت ، فذلك الكلب المرعب الذي يُبكي ابنته الصغيرة «منى» ليس له نباح ، وكأن كل شيء صُفِّد في هذه الليلة ، ولكن سرعان ما يلتفت خلفه ، وكأنّه تذكر شيئاً ما ، فينزل على النحو الذي صعد فيه ، متخطياً الغرفة الأولى ، والثانية ، ليدخل الغرفة الثالثة ، غرفة النوم الخاصة به ، ليجد ابنته الكبرى «أمل» ما زالت على النحو الذي تركها عليه ، جالسة على الكرسي البلاستيكي الأبيض الذي لا يشعر من يجلس عليه بالراحة المنشودة ، ولكن على الرغم من ذلك غالبها النعاس فنامت دون أن تشعر بذلك ، فهي لم تنم منذ يومين ، فاقترب منها والدها ، وبكل هدوء ربت على كتفها ، وسألها بصوت مشفق حنون :

– هل انخفضت درجة حرارتها ؟

انتبهت أمل لكلام أبيها من أول كلمة، فرفعت عينيها الذابلتين، واللتين كساهما السواد من جميع الجهات ، وابتسمت ابتسامتها المعهودة، لتطمئن والدها، والذي احتّل القلق عقله، وكل كيانه، وقالت بصوت منهك:

- الحمد لله على كل حال يا أبي.

- الحمد لله، ولكن، أخوك خالد؟

- لا تخف عليه يا أبي، سيأتي ومعه الدواء بعد قليل بإذن الله.

-و لكن الساعة التاسعة، ومنع التجول الليلي قد دخل.

- توكّل على الله يا أبي، ولن يحدث إلا خير.

- ونعم بالله يا ابنتي .

خرج « أبو خالد» من الغرفة، و قد أنس لكلام ابنته، واطمأن برحمة الله، فاتكأ على الفراش الموضوع في الغرفة المخصّصة للجلوس، وأرخى جسده ليرتاح وينسى همومه التي لا تنفك تجافيه، و لكن سرعان ما دق قلبه دقات معلنة حدوث شيء عظيم، وغلى بركان الأبوة في داخله، لينفجر من جديد محركاً قدميه المتعبتين مرة أخرى ليرفعاه ثانية إلى سطح البيت، متجهاً باتجاه شجرة الزيتون التي حجب الظلام رؤيتها عنه، فكان يشعر أنها تراه كما يراها هو بقلبه، يتحدث إليها فتسمع كما تعودت أن تسمع من أبيه من قبل، وتشعر به كما كانت تشعر به دائماً ، فيناجيها بفؤاده، يذكرها بعظمتها، وفرحته بتسبيحها لربها ليلاً ونهاراً، وبعرق الوطنية الذي نبض فيها منذ رويت بأول قطرة من دم شهيد – الذي كان والده – سائلاً إياها أن تخبره على من سيأتي الدور الآن لتروي ظمأها، وتواصل حياتها هل ولده خالد؟ أم هو؟ أم من . . .

سرعان ما أدرك خطأه ، وأيقن أن تلك الشجرة المباركة قد غضبت منه ، لأنه نسي أنها مخلوق ضعيف مثله، لا حول لها ولا قوة ، فاستغفر ربه، واتجه ببصره إلى السماء قائلاً بصوته الحزين :

- رحمتك يا الله . . رحمتك.

و ما هي إلا ثوان معدودة ، حتى تحوّل المكان من حالة السكون الكامل، إلى النقيض من ذلك، فالضوء قد غطى الشارع وكأنه لهب أحمر، وسيارات على مدى البصر، و خطوات أقدام لها وقع شديد على الأرض، و أصوات تنادي بملء الفم ، وكأنّها تلاحق مجرماً محترفاً، أو وحشاً كاسراً :

- قف . . . مكانك ولا تتحرك.

لحظتها ، يندفع «أبو خالد» مرة أخرى ليفتح الباب، ونفسه لا تنفك تخبره بأن ذلك المطارد هو ولده «خالد»، ولكن يا لدرجات السلم ما أطولها! وكأن كل واحدة منها هي فصل من فصول حياته، كلها ذكريات قاسية مرّة، ينقبض لها وجهه المتجعد فيزيده تعريجاً وبؤساً ، ولكن سرعان ما تتحوّل قسمات وجهه الحزين إلى ابتسامات ملؤها الأمل والتفاؤل، وذلك عندما يتذكر عند الدرجة الأخيرة يوم رزقه الله بولده الأكبر خالد، وكيف كانت سعادته لا توصف، فتخيّل نفسه طائراً يحلق في الفضاء، لا تسعه الدنيا على رحابتها، وتذكّر كيف كان يحلم بأن يصبح خالد شاباً صالحاً، نافعاً لدينه ووطنه، وأهل بلدته، فيصير طبيباً يعالج المحتاجين من أهل الخليل بأسرها، بل كل فلسطين، فيعشقه كل الناس ويحبونه، وهو يجلس على باب بيته، على كرسي ضخم مريح، يحتسي كوب الشاي المفضل لديه كالملك، لا ، بل فقط كالمختار «أبو علي» والكلّ يشاور

له ، و يتقرب منه ، و يدعو له ، لأنه من ربّى هذا الطبيب الطيب ، ولا يزال على هذا الحال حتى يصطدم بآخر درجة من درجات السلم ، فيقع على وجهه ، فتسقط قبعته البيضاء من على رأسه ، وعبثاً يحاول القيام فيمسك بسور السلم الخشبي فلا يستطيع النهوض ، ليس من الضربة التي أصابت جبينه ، ولكن من قدمه اليسرى التي ثنيت تحت أختها فأصابها ليٌّ بسيط ، فجعلت من المحال ساعتها أن تحمل رجل واحدة جسده السمين ، فنادى بأعلى صوته ، حتى انتفخت أوداجه ، وتحولت بشرته إلى اللون الأحمر القاني ، خرجت أمل على إثره والخوف قد تملّكها ، فلا شك أن مكروهاً قد أصاب والدها ، فتقف أمامه متسمرة لا تستطيع الحراك ، وهي تبلع لعابها ، ووجهها قد ازداد صفرة على صفرته ، فيبادرها القول :

- أمل . . افتحي الباب بسرعة لأخيك خالد .

فتجيبه بعد أن استطاعت أن تستجمع ما تبقى لها من قوة :

- ولكن . . أحداً لم يدق الباب يا أبي .

ومع غضب والدها الشديد ، وإصراره على ما سمعه ، تذهب أمل لتفتح الباب ، على الرغم من تأكدها من خلو الشارع من أي مخلوق ، فلو أن إبرة قد وقعت فيه الآن لسُمع صوتها ، فتفتحه ، وتنظر يميناً ويساراً ، فلم تلمح أحداً ، و لم تلحظ شيئاً غريباً في المكان ، وتعود وقد ازدادت قلقاً على حال والدها ، فتقول بصوتها الحزين :

- لا يوجد أحد على الباب يا أبي .

كان وقع كلامها عليه كالسيف ، مستحيل ، هل كان يهذي؟! أم أن خوفه العميق على ولده قد ذهب به بعيداً؟! أو ربما إحساس الأبوة قد كشف له عن أن خالداً في محنة وعذاب . . . و ساعتها حدثت المفاجأة!! خالد يدخل البيت مسرعاً كالريح ، وهو يلهث من شدة الجري ، حتى لترى صدره يرتفع إلى أعلى ثم ينخفض إلى الأسفل وقد خطف لونه ، ويتكلم بصوت متقطع مضطرب ، و كأن أحداً يلاحقه :

- أقفلي الباب . . بسرعة . . بسرعة يا أمل .

عندها ينسى أبو خالد كل ما رأى من قبل ، ويتجه ببصره صوب ولده ، ويناديه بصوت الحبيب لحبيبه ، فتخرج الكلمات من بين شفتيه صادقة معبرة ، ممزوجة بمرارة الأيام الحزينة التي مرت عليه خلال الخمسين عاماً من حياته :

- تعال يا خالد . . تعال يا طبيب الخليل ، بل كل فلسطين .

عجب خالد من كلام والده ، وأحس بأنه يعني شيئاً من وراء ذلك ، فهو لم يعهد على أبيه هذه اللهجة الحزينة ، ولم يره يوماً يتكلم كلاماً عبثاً ، وكأن والده يودعه ، ويوصيه بوطنه وأهله خيراً ، فيتبدّد وقتها كل شعور بالخوف قد أحس به خالد من قبل . . . وينسى أنه معرض للخطر ، وأنه ربما يكون بينه وبين الموت لحظات . . . فيتقدم نحو والده الراقد عند آخر درجة من درجات السلم ، فانهال يقبل يديه ورأسه ، يبكي وكأنه طفل صغير لا يريد أن يفارق والده ، لا كشاب في الثامنة عشرة من عمره ، حتى غطت دموعه وجهه الأبيض الصغير ، وكست كل جسده ، قائلاً :

- حفظك الله لنا يا أبي . .

عندها ضمّه والده إلى صدره، بكل ما تحمله الأبوة من معاني الحب، وأراد أن يقول له شيئاً، إلاّ أنه لم يستطع، إذ أقبلت أمل مسرعة، تتكلم على عجل، فعلى الرغم من أنها قد أقفلت الباب بالمفتاح المخصص له، فإنها كانت متيقنة أن الباب الذي كسر مرات ومرات من ضربات عصيهم، سوف يلاقي المصير نفسه في هذه المرة، فقالت لاهثة مضطربة:

- لا بُدّ أن تهرب يا خالد.

تدارك الأب نفسه، وكبت عاطفته التي كادت تجمد عقله وتلغيه، قائلاً على وجه السرعة:

- اصعد فوق المنزل يا خالد... واقفز على بيت الجيران.

وما أن صعد، حتى حدث ما توقعه الجميع، فقد كسر الجنود الباب، ليكسروا معه حرمة البيت، وكل قانون أخلاقي وإنساني، فيرعبوا الأطفال الأبرياء، ويقلبوا البيت رأساً على عقب، حتى أصبحت لا تميز بين الدقيق والسكر... كل ذلك وأم خالد تغطّ في نوم عميق، فهي على ذلك الحال منذ سنوات طويلة لا يعرف لها علة محددة، و«أبو خالد» ينظر ويشاهد بأم عينه هذا الدمار والخراب، ولكنه يزداد تمسكاً بالأسوار المحيطة بالسلم، حتى لا يصعد أحد منهم إلى فوق لئلا يكون خالد قد قفز بعد إلى بيت الجيران، وقد أحس ساعتها بألم شديد في رجله التي أصيب بها، وبعناء شديد يمدها أمامه وهو لا يزال جالساً مكانه، ثم ينظر بعينيه المنهكتين أمامه، ليرى شخصاً طويلاً، ربما يقارب المترين في طوله، يلبس الزيّ العسكري، وله رأس كبير، لا تكاد ترى حتى ولو شعرة واحدة في رأسه، ووجهه شديد الاحمرار، يبدو أنه من اليهود الروس الذين أتوا إلى فلسطين، وعيناه الزرقاوان تنم عن حقد شديد، كان يتكلم بصوت تكاد تقفز له القلوب من مكانها ثم تعود لشدته وقوته، بلغة عربية مكسرة جداً:

- «وين المخرب!».

وأشار بيده اليمنى إلى أحد الجنود الواقفين، والذي من الواضح أن يجيد العربية أو بعضاً منها، ليترجم له ما يقوله أبو خالد، ولكن أبا خالد لم يتكلم وقتها بكلمة واحدة، بل بقيت عيناه شاخصتين في ذلك الروسي الأحمر، والذي تيقن بأنه هو الضابط، وداخله يتقطع من شدة الألم والغيظ، كيف أن هذا الروسي اليهودي من ليس له حق في بلادنا يأتي ويتوطن، ويكون الآمر والناهي، ويلاحقنا في بيوتنا، ويطلب بكل صلف وعنجهية أن نسلمه فلذات أكبادنا التي عشنا من أجلها، وحلمنا الجميل الذي عشنا من أجله.

أحسّ الضابط وقتها بكل ما تحمله عينا أبو خالد من حقد وكراهية شديدين عليهم، فملأه الغيظ والفزع في آن مع أنه هو الأقوى فركله ركلة قوية في بطنه، جعلت ابنته «أمل» تصرخ بكل ما فيها من حبّ لأبيها، وخوف عليه وشفقة على أخوتها الصغار الذين ما كفوا عن البكاء منذ دخل الجنود البيت قائلة:

- أيها الكلاب.. الله أكبر من ظلمكم هذا.

- أبي الحبيب.. هل أنت بخير؟

و لكن سرعان ما استجمعت أمل قواها، ومسحت دموعها، واقفة بجوار والدها، ليكونا جسراً منيعاً - بحول الله - يمنع اليهود من الصعود إلى سطح المنزل،

عندها نظر أبو خالد إلى ابنته التي لا تهاب هؤلاء الجنود المدججين بأعتى السلاح، فتغالبه الدموع دون أن يشعر، ليس خوفاً وجزعاً من عاقبة ذلك، بل فرحة واعتزاز بابنته الكبرى والتي تيقن أنها ستكون حقاً الأمل لأمها وأخوتها إذا أصيب بسوء، وأنه أصاب يوم أن اختار لها اسم «أمل»، فسرح بذاكرته إلى يوم ولدت أمل، وكيف كان إصراره على تسميتها هذا الاسم، ولكن يومها أصرت زوجته أن تسميها «آيسة» من شدّة ما كانوا يعانوه من فقر وضيق عيش ومضايقات من اليهود، فيتهلل وجهه وهو يتذكر تلك المناوشات الجميلة التي جرت بينه وبين زوجته، وكم تمنى أن تكون الآن بجواره ليقول لها إنه قد أصاب وصدق ظنه في هذا الاسم، ولم يوقظه من تلك الذكرى السعيدة إلا ضربة أخرى في صدره من ذلك الضابط الماكر، فيقول له وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ:

- «تضحك يا حمار؟!»

وهنا يتقدم أحد الجنود، والذين يبدو أن غيظهم لم يكن أقل وطأة من ذلك الضابط الأغبر، فهو على الرغم من صغر سنة - إذ لم يتجاوز العشرين عاماً - كل شيء فيه ينطق بكراهية للعرب، وتعطش لدمائهم، فيقول بلغة عربية أفضل حالاً من لغة الضابط، حتى يرهب أبا خالد:

- اقتله يا سيدي، ونذهب بعدها للفتى.

عندها زاد أبو خالد في الضحك حتى انخرط فيه، وذكر كيف كانت أمهات الشهداء تطلق الزغاريد ابتهاجاً باستشهاد أولادها، و تذّكر صديقه «أحمد» الذي استشهد في أحداث 1968 عندما خرجت مسيرة حاشدة من الحرم الإبراهيمي بعد صلاة الجمعة، احتجاجاً على حرق المسجد الأقصى، واشتبكت مع قوات الاحتلال، ساعتها، أصيب أحمد. . نعم أذكر ذلك، أصيب بطلقة في رأسه، ووقع بين يدي، ثم نطق الشهادتين وهو يبتسم وظلت الابتسامة مرسومة على وجهه حتى دفن. . فالموت لا يبكينا أيها الجبناء، بل يبكي أمثالكم. . فاشتد غيظ الجنود الواقفين بأسرهم، فتقدم الواحد منهم تلو الآخر نحو ضابطهم يتمنى أن يظفر بهذه الفريسة، ويتخلص من هذا الرجل العنيد، الذي لا يبدو آبهاً بأي شيء، ولكن الضابط وعلى الرغم مما يحمله قلبه من حقد وغيظ، يرسم ابتسامة صفراء على وجهه الذي بدا لحظتها دون لون يعرف، وهمس في أذن الجندي - الذي يبدو أكثرهم إجادة للعربية - بكلمات لم يسمعها سواهما، فيتقدم هذا الجندي بخطوات يصطنع فيها الهدوء، ويتكلّم بصوت يظهر فيه الثقة والاطمئنان:

- لا تقتلوه، فهو شيخ عجوز.

ثم قهقه قهقهة عالية جداً، وقهقه وراءه الضباط والجنود، وكثير منهم لا يفهم ما يقال، بل فطن بأن تلك هي أوامر الضابط، ثم استكمل كلامه قائلاً:

- اقتلوا ذلك الفتى الذي يختبئ فوق السطح.

فعاودوا الضحك ثانية، وتقدم ذلك الجندي وخلفه مجموعة الجنود، وأرادوا تخطي أبو خالد وأمل الواقفين عند بداية السلم والصعود إلى أعلى، لكن أبو خالد كان قد أقسم في نفسه ألا يجعل أرجلهم تطأ السطح إلا على جثته، فمجرد أن وضع الجندي المترجم قدمه محاولاً أن يفعل ذلك حتى أمسك أبو خالد قدمه بكل قوة و تحدٍّ، حتى ابنته أمل قد تعجبت من تلك القوة

العجيبة التي حلّت فجأة على والدها، وتذكّرت كيف كان يشكو دائماً من ألم في عضلات يديه، وتعالت صيحات الضابط والجنود، واتجهت أفواه البنادق جميعها باتجاه أبو خالد، لتمتزج مع توسلات أمل ورجائها لأبيها بترك ذلك الجندي.

– اتركه يا أبي . . سيقتلوك . . أتوسل إليك . . اتركه .

ولكن، كأن أبا خالد تحول إلى آلة صماء، لا تسمع ولا تنطق بشيء ، لكنه كان يردد قائلاً: روحي فداؤك يا خالد، سأروي ظمأك يا شجرة الزيتون.

عندها صرخ الضابط صرخة قوية حاسمة، حتى سمع بعد ثوان صوت طلقات نارية، لتختلط مع صوت بكاء الأطفال ، وصراخ أمل الذين شاهدوا الرصاص يخترق جسد والدهم لا لشيء يذكر سوى أنه أراد الدفاع عن ولده وبيته، وأحس ذلك الضابط اللعين أنه قد أشفى غليله عندما رأى الدماء تسيل من ظهر أبي خالد، فاستكفى بهذه الغنيمة، وأمر جنوده بالانسحاب، قائلاً بصوت المنتصر المتشفي:

– آسفون . . لم نشأ أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ .

وكان الأطفال جميعاً في هذا الوقت مجتمعين حول والدهم، يبكون ويتصارخون، لا يعرفون ماذا سيفعلون، بل لا يجيدون صنع شيء في هذه المواقف سوى البكاء، و أمل تدور في البيت لا تدري ماذا تفعل، ثم تخرج هائمة على وجهها، لعلها تجد سيارة في هذا الشارع الساكن سكون أصحاب القبور، لتصطدم عند الباب بأخيها خالد – الذي كان مختبئاً على ما يبدو – الذي لم يرها من لهفته الشديدة على والده منذ سمع طلقات النار، ويا لهول ما رأى ، والده مضرجاً بدمائه، يجلس نفس جلسته التي تركها عليه، فيستقبله قائلاً بصوت متقطع ، منهك:

– أهلا بطبيب . . . فلسطين .

انفجر خالد وقتها في البكاء ، و قال لأبيه:

– لا تتكلم يا والدي . . أرجوك . .

وعبثاً يحاول خالد أن يوقف النزيف من جسد والده، ولكن دون فائدة، فالدم يسيل بغزارة ليضعف معه جسد أبي خالد وينخفض صوته، لكنه متعطش للحديث مع ولده الأكبر خالد ليكون حديث الوداع فيقول:

– أوصيك بأمك وأخوتك خيراً يا خالد . .

ثم يسكت برهة من شدة الألم ويغمض عينيه ولكنه سرعان ما ينظر بلهفة صوب خالد، وكأنه تذكر شيئاً ما، يبدو أنه شيء يعز عليه كثيراً، حتى تذكره في هذه الظروف العصيبة، فيقول له:

– خالد . . أخرجني . . أخرجني . . . من البيت .

– إلى أين يا أبي؟!

– أخرجني . . . فقط .

ورغماً عنه يحمله إلى خارج البيت ، فينظر إلى الشارع الذي عاش فيه طفولته، وشبابه وكلّ حياته، نظرة فاحصة، وكأنها النظرة الأخيرة، ثم يقول لخالد:

– خذني إلى تلك الشجرة .

– تقصد . . شجرة الزيتون !

– نـ . . . نعم .

وبصعوبة بالغة، يحمل خالد والده إلى شجرة الزيتون، ويتعثر في الطريق كثيراً، فوالده ثقيل الوزن، والليل حالك السواد، وعيناه مغطاتان بالدموع، ويضع والده تحتها، فينظر أبوخالد إليها نظرته الأخيرة ، وتخيل إليه أنها تبتسم ، فابتسم طرباً لذلك، وفاضت روحه وهو على هذه الابتسامة .

---

* قاصة فلسطينية تقيم في غزة .

لأني أحبك ..

أحلام محمد بشارات*

كانت نظرتي إليه في يوم من الأيام أكثر من نظرة احترام، أشبه ما تكون بانجذاب لشيء مقدس، ربما يكمن في روحه التي لا أعرف لها مكاناً أو في وجهه الأصفر الملتحي أو ربما هناك في عينيه اللتين حرصت على أن لا يصادفا عيني، ولكن إن حدث ذلك وقلما حدث ، استثارت تلك النظرة فيَّ شيئاً اعتدنا نعته بالحزن، والذي هو في نظري عالم تتحد فيه المشاعر بالأحداث وتمتزج فيه الأحاسيس بالمواقف ليصبح جذوة ملتهبة تشكل مصدراً للألم والدفء حريقاً يجترّ الساعات على مهل ويطحن الذكريات ببطء متناه .

هل انتهى الحداد؟ أم تراك أخذت بثأره حتى استبحت لنفسك اليوم ما حرمته عليها بالأمس؟

وددت لو أسمعته سؤالي هذا منذ سنين مضت وأنا أشدّه بعنف من قبّة جاكيته السوداء التي اعتدت أن أراه يرتديها . ولكن، لا أسأله وما كنت أنتظر جواباً ، بل حار السؤال على خليج شفتي وطأطأت رأسي مواصلة المسير، وما زالت ذاكرتي مصرّة على حمل صورته وعرضها أمام ناظري ، استبدل جاكيته السوداء بأخرى بيضاء أنيقة ، ولحيته التي أطلق لها العنان عنواناً للحداد ما عاد لها وجود، وذاك الشحوب وتلك الصفرة اللتان كانتا تضفيان على وجهه رونقاً خاصاً امّحت ملامحها، وذاك الهدوء وذاك الشرود اللذان خلفهما الحزن عليه غادرا جسده وتلك الشفاه المرتعشة الساهمة الساخرة توردت بابتسامة خضراء ،أحقاً نسيت بهذه السرعة و السهولة؟ لا أصدق ، فقدت احترامي، ولم أعد أطيق أن أراك وويل للقوانين والأعراف والتقاليد، لولاها جميعاً لاستبحت طعنك بخنجر ضخم كضخامة المأساة والحزن .

أتعرف أن اصفرار وجهك كان يعني لي توردا، وذبول جفنيك تفتحاً، وذلك الذقن الطويل كان يمد الأمل بقدر الألم في صدري؟ أما الآن وقد استبدلت الألوان والمسميات واستبحت المحرمات واجتثثت ذلك الذقن الطويل، فقد منحت الحزن تفرعات كثيرة لأماكن كانت قاحلة بلا ماء ولا زرع في جسدي، وخلفت روحك بلا ماء .

أية مفارقة لعينة تلك؟ كيف استبحت لنفسك النسيان البليد، وكنت قد استكثرت عليك مجرد الشرود أو السهو؟ ولكنك جئت بما لم أتوقع، بالوجه الآخر، ولا أتمثلك إلا تقلد القاتل وساماً وتحتضن الرصاصة وتمسح آثار الطعنات .

أفعلت ذلك عن جهل أم علم أم نزوة؟ أم كما ادّعت أمي من عمق الحاجة متعللة بأنّ الصغار سيموتون جوعاً، لا ،

ليس هذا هو الحل ، أهي ضريبة ، من أجل أن يحيا إثنان يجب أن يموت واحد أو بالأحرى تقتل واحداً طعناً أو شنقاً أو رمياً بالرصاص أو قذفاً عن سطح المنزل .
إنه تبريرهم جميعاً وما ظننتك ترضي به ، لكنك رضيت . لماذا ؟ أنسيت أن هناك ثوابت غير قابلة للتجاوز؟ لكنك لم تتجاوز فحسب ، بل قفزت بعيداً في اتجاه آخر و لدرب أخرى ترتادها مدثراً بالذل وتعود منها وحقيبتك مليئة بثياب وأطعمة تسد الحاجة ، لكنها مغمسة بالعار ، وتفتح معدة كبيرة جداً لا تستهويها الأطعمة .
وبذلك فقدت صورتك ملامحها ولم أفلح في لم قصاصاتها ورفاتها وأصبحت إطاراً خشبياً يتآكل مع الأيام نجوت من الموت لتكون القاتل ، فكلما صادفتك ولم ألحظ سوى شبحك تخيلتك ميتاً وتذكرت الحكايات التي تناقلت بعد استشهاد والدك ، والتي مفادها أن الرصاصة ما أصابته إلا أنها أخطأتك .
قال أحدهم وكانت فلسفته قائمة على قاعدة الغاية تبرر الوسيلة : لمَ تستغربي ما فعل وتستكثرين عليه العمل في ورشاتهم؟ تذكرين جيداً ذلك الإكليل الذي زين قبر والده الشهيد ، أتعلمين مم صنعته ؟ لقد صنعته من زهورهم ، من ورود نبتت في مستوطناتهم ورويت بمائهم ونمت وفقاً لمنهجهم ورعتها عيونهم وتنفست من هوائهم .
أية طعنة هذه؟ عجباً لك ولفلسفتك ، أما علمت أيها الجاهل أن تلك الزهور لنا ، وأنهم اغتصبونا كما اغتصبوا الأرض ، الذرات التي تحتضن بذورها ذرات ثرانا والماء الذي تسقي به من ينابيعنا وبحرنا ، والهواء الذي تتنفس منه شذى جونا والأيدي التي تجتث اليابس وترعى البراعم وتزيل الأشواك أيدينا .

أما هو فشيد منازلهم ، ولو أني أعلم أن زهرة تنبت في تلك البيوت لقبلت يديه ، لكنّه صدقني في كل بيت ينبت قاتل ، والبيت يصبح غولاً يلقينا عن كتفه .
أتعرف لم تذكرت بعد سنين ، لأنّ صورتك هذه جعلتني أستحضر صورة الزهرة التي زرعنا والبيت الذي بنيت ، وأباك الشهيد والجندي الذي أطلق عليه الرصاصة وحدّد بها نهايته .
وآلمني أن أراك بلا ساقين تقاوم الرياح بذقن طويلة بيضاء وجاكيت أسود بعد ابيضاض ، ووجه أصفر وشفتين مرتعشتين فيهما تورّد الماضي ، فاتخذ الجرح بعداً جديداً في اتجاه آخر ، والحزن غدا بلا طعم ، فاستحال احترامي المقيت لك شفقة ساخرة أودّ لو أستطيع استئصالها من روحي ، لكن ، عبثاً ، ألم أقل بأنّ الحزن في نظري إحساس ومشاعر ممزوجة بشذرات الموقف والأحداث ، تلك التي منحتك دور القاتل المقتول .
من حقي أن أسأل : لمَ تلعب دوراً مزدوجاً؟ لم لا تكون واحداً وتحسم النهايةَ لصالحنا جميعاً لأفشي لك سرّاً أخفيته في مكان مجهول من صدري ، هو أني أحببتك بقدر احترامي ومقتي .

* قاصّة فلسطينية تقيم في نابلس .